
منتدى إقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com
للكتب (كوردى ,عربي ,فارسي)
منتدى إقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com



جندي في الجزائر

ج. سرفان شريبر

جُنديّ في الجزائر

نقله إلى العربية
لجنة من الأساتذة الجامعيين

منشورات
المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر - بيروت

الطبعة الاولى
آذار (مارس) ١٩٦٠

توطئة

ان للاحداث حقيقة تفرض نفسها على الجميع وتستعيض عن حماس الجدال ببساطة الواقع ووضوحه . ولكن لا يدرك هذه الحقيقة الا من له الكفاءة بأن يكون شاهداً عدلاً وإلا ساءت نيته او انقاد لشعور فردي سالف أو اصبح ضحية وهم مثل من يـــدلي بشهادته امام المحكمـــة مستنداً الى الظنون . فليس للشهادة الا قيمة شاهدها .

والكتاب الذي يقدمه لنا اليوم سرفان شريبر هو هذه الشهادة التي لا تنفصل عن شاهدها . فهو شهادة اولاً يدلي بها رجل عاش الاحداث التي يشهد بها . انه وصف واقعي ذو صبغة وضعية لبعض احداث الجزائر وابرزها، وصف يستحق ثقتنا لأنه صادر عن جندي لم يكتف فقط بالمشاهدة بل عاش المأســاة الجزائرية طيلة خدمته العسكرية واستطاع بفضل خبرته العسكرية – عدا خبرته الصحافية – استنباط مشاعر جنوده ازاء المعـــركة التي يشنونها يومياً والتي لم تؤد الى اية نتيجة ، الا انغماس الفريقـــين الفرنسي والجزائري في دوامة يتعلق بأحد الفريقين امر الخروج منها .

اما الكاتب أو الشاهد الذي هو مدير الصحيفة الفرنسية **الاكسبريس** ، فقد خدم ستة اشهر في جيش الجزائر وحاز على عدة اوسمة تقديراً لشجاعته وصفاته الاخلاقية ومثله الحسن، حسبما ذكرته قيادة الجيش التي لم تعتبر التأنيب الذي يوجهه اليه بعض الرؤساء، لأنه فضل الصراحة على الوطنية العمياء عاملاً بقول مونتسكيو : « ان الموت في سبيل الوطن واجب على كل انسان ولكن ما من احد مرغم على الكذب في سبيله » . فالوطن الذي يغذي ابناءه بالدعاوة الكاذبة يستوعبهم اوهاماً سوف تقضي عليه . لذا فان كاتب «جندي في الجزائر» اذا أنب فرنسا فدفاعاً عن فرنسا التي ليس من صالحها قط ان تعمد الى العنف في حل مشكلاتها . .

يبقى ما تقوله لنا صراحة .

ان المأساة الجزائرية هي اصلاً مأساة فرنسية . ولكن بين الاثنتين تقارب واختلاف في نظر الجنود فحسب . تقارب أولاً عندما يشعرون بأن الثوار الجزائريين رغم الدعاوة الحربية التي تشن ضدهم يتمتعون بالصفات الانسانية التي تستوجب الاحترام. فليست خطة ارجاع السلم الى الجزائر أو خطة الكومندو الا اعترافاً بحق الانسان بما هو انسان . انها خطوة للتفاهم نتيجة هذه المأساة المتبادلة . فالألم ايضاً يقارب بين الناس .

ولكن الانانية تسود بين الفريقين فتفصل بينهما ، اذ ان كلاً من الفريقين يسعى الى الحصول على كامل مطالبه دون استثناء . ويفصل الجنود ايضاً المسافة بين المستعمِر والمستعمَر ،

مسافة ادرك لومرشان مكنونها عندما قال : «ربما يشعر العرب بوطأة الاحتلال اما نحن فاننا نختلف فيما بيننا: انه لوضع مختلف».

فما هي اذن المأساة الجزائرية ، وما هي المأساة الفرنسية من خلال منظار الجنود ؟

تدور رحى الحرب الجزائرية في اتباع وسائل العنف والاكراه التي تشمل جميع الجزائريين دون استثناء . فيعتبرهم الفرنسيون مجرمين بالقوة رغم سياسة ارجاع السلم التي وافق عليها السيد روبير لاكوست والبرلمان الفرنسي . ولكنها سياسة لم تتحقق اذ يرى بعض الفرنسيين ان الثورة الجزائرية ثورة مصطنعة غير منبثقة من استياء الشعب ، بل بتحريض الدول الاجنبية التي تتبع سياسة تحرير الشعوب لا لتحرير الشعوب بل للقضاء على الدول التي تنافسها . هذا الرأي غير معقول طبعاً ، اذ ان الشعب الجزائري مصمم على النضال ، وان صح الرأي لارتد هذا الشعب عن القتال تجاه وسائل العنف المتبعة ولما زادت هذه من عزيمته . اذ انه يحل مكان الجزائري الذي يقتل عشرة ثوار على اهبة الانتقام العنيف له الى ان يثور الشعب الجزائري بكامله ضد السياسة الفرنسية . ان مأساة الجزائر اذن مأساة شعب لن يهدأ ما لم يظفر بالاستقلال وان استعملت ضده شتى وسائل العنف والتعذيب .

•

ولكن سرفان شريبر يعلل الاحداث الجارية في الجزائر على ضوء السياسة الفرنسية نفسها ، فتبدو لهمظهراً من مظاهر اهمال

السلطات الفرنسية واتباعها سياسة غير ناجعة رمت عرض الحائط هذه الحكمة القديمة الصحيحة الا وهي « اعرف عدوك » . وكما قال احد السياسيين إن حـل مشكلة الجزائر لا يقتضي تغيير نوع الحكم وحسب بل تقتضي تغييراً في نفسية فرنسا وتفكيرها . ولا عجب اذن في قول احـد الجنود في الكتاب : « اني اشعر كأن الانذار الذي وجهه هتلر يومـاً الى فرنسا يتكرر من جديد » ، وفي قول آخر : « ان الجزائر هي بالاحرى عاصمة فرنسا حيث يكتب تاريخها » . وقال آخر : « ان حرب الجزائر هي حرب تشنها فرنسا على نفسها » !

فإزاء عجز فرنسا عن حل المعضلة الجزائرية بالطرق السياسية تحول الجيش الى بوليس اداري مهمته توطيد الامن فحسب .

ان هذا الكتاب اذن سؤال موجه الى فرنسا اكثر مما هو حل عملي للمعضلة الجزائرية . ولكن طريقة طرح هذا السؤال تتضمن جواباً واضحاً اراد سرفان شريبر ان يقيه شر الحزبية والتحيز وان يحصره في نطاق الوقائع التاريخية لعل القراء يستنتجون منها ، حقائق لا تقبل الجدل .

●

ولكن ليس كتاب سرفان شريـــبر « جندي في الجزائر » وصفاً للمعضلة الجزائرية – الفرنسية فقط بل هو وصف ايضـاً لحالة الجنود الذين هجروا بلادهم ليقاتلوا في الجزائر . انها قصتهم في هذه البلاد المستعمرة وشعورهم نحو القتال . فمـــا هو اذن الجندي بنظر السلطة التي ارسلته الى الجزائر ؟ وما هي مطامحه ؟

ترسل السلطات الجنود الى الجزائر كأرقام مجهولة الاسماء كي تنصاع لاوامرها ، وان مست هذه الاوامر قواعد الاخلاق . فيسجل الرؤساء اسماء الجنود على الورق وهم داخـل مكاتبهم المقفلة لا يعرفون حقيقة الجزائر الا من خـلال الرأي العام واجتماعات الاقطاب ودعاوة الصحف . وان قدم الرؤساء يوماً الى الجزائر قَدِموا كي « يتفرجوا على الحرب » اما الحقيقة التي يعيشها الجنود يومياً فهي مخفية عنهم .

لقد عانى جنود الجزائر الفرنسيين من تجاهـل السياسيين لاوضاعهم الواقعيـة الامرّين ، ثم يئسوا من اقناع الرؤساء وامتنعوا عن العمل بموجب مبدأ السلم ، في ظرف اصبح السلم فيه خيانة وطنية ! فقال احدهم وقد نفد صبره : « تباً لهـذه المهنة !» وخجل الجنود حتى من التطوع !

ليست غاية الجيش توطيد الامن بالعنف والتقتيل كما قـال احد النقاد عن جنود هتلر : « وطدوا الامن حيث لم يتركوا الا الدمار ! » ، بل تتركز غاية الجنود على الدعائم الانسانية التي لا تحتقر الانسان . فلا يقنع الجنود اليوم الا بهذه الدعائم الانسانية لا بالكلام العاطفي .

اما الجنود في الجزائر فهم يحاربون لقضية لا يجدون لها مغزى . ولذا قال جوليـان للكولونيل اسبانيول : « ... تذكر الايام التي قضيتها انت مع لوكلر في (التشاد) ، حين لم يكـن عمر هؤلاء الشبان سوى عشر سنوات . كنتم تحملون في نفوسكم صور ملحمة عظيمة تعيشونها كل يوم وتحرقون بها اقذار الحياة اليومية .

فأية حمية داخلية اعطيتم لجنود اليوم ؟ لأي قيم يجابهون المخاطر ويقاتلون ؟

فلم يجب اسبانيول على سؤاله !

اما القارىء العربي فلعله يتخذ موقفاً متبصراً من المعضلة الجزائرية ومن فرنسا فيمتنع عن الاتهام الذي لا يستند الى الوقائع ويصبح بدوره بفضل هذا الكتاب شاهداً – ولو عن بعد – له الكفاءة بأن يدلي برأيه . فماذا يكون رأيه الخاص ازاء الاستعمار في الجزائر ؟

لا يعطي سرفان شريبر جواباً على هذا السؤال بل يطرحه معنا على السلطات الفرنسية . ولكن طريقة طرحه لهذا السؤال تثبت اقتناعه بأنه لم يعد للاستعمار جنود تدافع عنه . اما بشأن فرنسا فعلينا ان لا نعمل بقول هنري اذ قال : « كما ان فرنسوا مورياك لا يحكم على الله لانه احال سودوم الى رماد كذلك لا احكم على فرنسا لأنها حاربت الجزائر » ولكن اذ ننبذ تصرف فرنسا المنكر نحكم عليها حسب افعالها .

فليت القارىء العربي يستنير بكتاب سرفان شريبر ويشاركه هذا الصوت الشريف الحر على تأدية رسالته في عالمنا العربي . ولعل سرفان شريبر هو شخصية مثلى نأمل من احرار فرنسا ان يمتثلوا بها ويتابعوا نضالهم ضد الاستعمار ولاجل تحرير الشعوب.

مقـــدّمة

انها قصة حياتي وحياة بعض رفاقي في الجزائر، فمنهم من حذا حذوي وترك الجندية ومنهم من يتابع اليوم خدمتــه العسكرية التي اتخذها مهنة له .

لذا غيرت قصداً بعض الاسمــاء لأن لجميع اصحابهـــا الحق بالالتباس بل أدخلت ايضاً على هذه المذكرات التعديلات الضرورية. فلا يمكن اذن اعتبارها وثيقة تاريخية .

ولكن من اين ابدأها وقد توالت الاحداث كحبات السبحة تنقلها الصحف كل صباح راسمة يوماً بعد يوم الحقيقة المخزية لمعركة الجزائر. لقد عددت الصحف طيلة فصول السنة بعض المآسي منها:

– « في العرباء اصيب مدير معمـــل الرصاص السيد ابو علم بجراح خطرة » .

– « في منارفيل وجد رجل عربي مذبوحاً » .

– « انفجار مريع في مكاتب احدى وكالات السفر » .

– « استولى الثوار على المقاطعة الغربية » .

من يطالع حتى اليوم ، يا ترى ، هــذه الاخبار التي تتابعت

بصورة رتيبة منذ عدة اشهر ، بل وعدة سنوات ؟

لنأخذ عرضاً خبراً بسيطاً بين كل هذه المآسي وهو : « امس في ابراهيم ، اطلق ركاب احدى الشاحنات الرصاص على المارة فلم يصب بأعجوبة الا واحداً منهم » .

فلم يحدث امر غير عادي ذلك اليوم يختلف عما يحدث كل يوم تقريباً في عدة قرى من هذا البلد الشاسع . ولكن ماذا حدث بالتدقيق ؟ سأبدأ كتابي بهذا الخبر .



١

الوضعُ الـــرَّاهِن

اعتــــداء

كان الحر شديداً هذا اليوم والناس متوترة الاعصاب لا بسببه فقط بل لاستمرار حوادث الاعتداء . فبالامس مثلاً وجد ساعي البريد الفرنسي مذبوحاً في بداية دورته اليومية رغم انـــه رجل حسن المعشر يعمل في الجزائر منذ خمس وعشرين سنة دون ان يعاديه احد نظراً لطيبة قلبه ... لكن الشعب الف طبعاً امثال هذه الاعتداءات التي تتكرر مرتين او ثلاث في الاسبوع .

في احد المقاهي افترق عربي شاب عن رجـل عجوز ذي لحية شهباء بينما ظل هذا الاخير على طاولته يحتسي على مهل قدحاً من الشاي . وما ان انصرف الشاب خارج المقهى حتى زأر زمور سيارة حربية وتوقفت فجأة . فتراجع المـارة واداروا انظارهم ناحيتهـا .

لقد اوشكت سيارة الجيب الصفراء ان تصدم العربي الشاب

الذي يجوب الشارع دون انتباه اليها . فلم يصبه اي اذى بل تملكه الغضب واخذ يشتم الجنديين الراكبين في السيارة وهو يشير بيديه ويقذفها بوابل من الاتهام بلغته العربية التي لا يفهمها الأجانب .

فأدار السرجان بارال محرك سيارته لينصرف اذ انه لا يحب العرب عامة ولا من يجرؤ على شتمه خاصة. فليس لديه متسع من الوقت ليجيب الرجل على انفعاله ولا سيما انه مكلف مع رفيقه الجندي من الرتبة الثانية بمهمة رسمية . فارتأى ان يؤجل امر تدبير هذا الصعلوك المزعج مرة اخرى حين يلتقي به في هذه القرية الصغيرة التي لا سبيل للاختفاء فيها . لكن جيرونيمو صرخ بالشاب وبصوت ضخم :

– كفّ عن الزمجرة ايها الصعلوك والا هشمت رأسك .

وقفز جيرونيمو من الجيب وهو يحمل بندقيته حسب الطريقة النظامية فصمت العربي واستعاض عن زمجرته بارتجاف يديه الطويلتين القاسيتين ونظراته السوداء . واخذ رواد المقهى يتطلعون الى الشارع، وقد جمد صاحب المقهى في مكانه وهو يحمل اقداح الشاي ويدير رأسه من حين الى آخر ليتتبع مجرى الحادث.

خفف صمت العربي الشاب من شحوب وجوه المارة ، لكن رؤوسهم وأيديهم لم تبد حراكاً، وسيارة الجيب ما زالت في مكانها وجيرونيمو يحمل سلاحه في يده والعربي واقف على رجليه آنف ومفتخر بعدم انصياعه .

عندئذ خرج العجوز من المقهى وتوجه نحو الشاب .

ساورت جيرونيمو الرغبة في اطالة المشهد برهة ريثما يشبع كبرياءه . فكم يلذ لجيرونيمو انيتحلى بالقيـــادة . انه لشعور لم يحظ به في عائلته ولا بين اصدقائه في نيسيا . لم يداومه هـــذا الشعور إلا منذ قدم الى الجزائر فشعر بنفسه رئيساً مطاعاً يملك رجالاً وسلاحـاً يزيد رجولته . وكأن حركات جيرونيمو قد بهرت جميع الحاضرين وسلب تصرفه اعجابهم فحدقوا بفوهة سلاحه . كم يثيرون بذلك لذته ! ليس عليه ليديم هذه اللذة إلا أن يحظر على الجميع الحراك بما فيهم العجوز الذي قـدم ليهدىء من غيظ رفيقه . ولكن متعة جيرونيمو لم تدم طويلاً اذ قاطعه بارال قائلاً :

– جيرو ! ليس لدينا متسع من الوقت ... اهمـله واستقل السيارة .

لقد طفح الكيل بنظر بارال . فهو قائد السيارة والمسؤول عن وصول الرسائل في الوقت المعين . فاذا استمرت المهزلة اكثر من ذلك تعذر اعادة جيرونيمو الى صوابه واصبح اصماً وعبـداً لحيوانيته لا يستطيع ادراك العواقب .

تقدم العجوز بحذر وبخطوات بطيئة متثاقلة كما يتقدم الصياد من فريسته كي لا يثير جزعها . وقبل ان يطـأ الرصيف قال بصوت خافت الى صاحبـه الشاب « عد الى منزلك ... ارجع ولا تعكر الجو ... ارجع » . قالها بالفرنسية كي لا يثير ريبة الجنود الفرنسيين .

ومزق رهبة السكون طلق ناري زعزع الاعصاب وخر على

اثره العجوز على الارض وهو يشد على بطنه ويلفظ في اعماقـه كلمات خافتة غير مفهومة ، بينما ينهدر دمـــه من الرصيف الى حافة الطريق . لكنه ما زال ينظر بعينيه الواسعتين الى سيارة الجيب وكأنه مرتاب مما سيحصل بعد مقتله .

أما جيرونيمو فلم يتحرك من مكانه بل أخـــذ ينظر حيال الأمر الواقع الى سلاحه الذي نفذ منه الطلق دون قصد منـه . وكأن هـذا السلاح يستوعب كل مشاعر جيرونيمو وأهواءه إلى ان تحتد فيضغط هو على الزناد !

وعندما استفاق جيرونيمو من غيبوبته وجد امام قدميـــه جريحاً فارتعش قليـــلاً وانتظر أوامر رئيسه دون أن يبدي حراكاً.

جيرونيمو

ان جيرونيمو شاب جذاب اكثر من باقي الجنود . فهو لا يتوانى في العراك وهو ايضاً ذو جمال اسطوري . ولقد عطف عليه كولونيل فرقتنا ودعاه الملاك الأسود لأنه مغرم بمـا يصفه الجنود بلهجة تلطف من فظاظة الكلمة وهي كلمـــة العراك . فعندمـــا لا تواتيه الفرصة للمشاجرة خلق داعياً لها ليروح عن نفسه أحزان هذه الحرب الرتيبة . . . وهو ليس فريداً في حبه هذا ، فجميع الجنود يحبون العراك . اما جيرونيمو فهو أشد شجاعة منهم إذ انـه حيال اي مشاجرة تجده منبسط الأسارير خلافاً لبـاقي الجنود المتحفظين . وتنحصر كل هواية جيرونيمو في إطلاق

الرصاص .

لقد تعرفت به للمرة الأولى في ظروف خاصة بعد ان مكثنا في الجزائر اكثر من شهر وبعد ان اشتركنا في عدة حملات محلية رغم ان جيرونيمو لم يكن في نفس فرقتي ، إذ كانت تجـري المناورات حسب الترتيب النظامي .

وصل ذات مساء الملازم مارتان في زي جنود المظلات ووجه إلي الكلام قائلاً :

– كن حاضراً عند اطفـاء الانوار في الساعة التاسعة مساء لأننا سنقوم بجولة كشفية . لا تحمل شيئـاً في جيوبك لئلا يثير قرقعة ، ولا قبعة على رأسك لئلا تلمع في الظلام . كل جيداً قبل ان تأتي لأن مسيرنا سوف يدوم طويلاً ، ولا ترتدي قميصاً صوفياً رغم البرد القـــارس لأن السير الطويل سوف يكسبنا حرارة .

لقد خدم مارتان الضابط المكلف بالجولات الكشفية طيلة عشرين عاماً وحصل على امتيازات عديدة . انــه يعرف انظمة الجيش عن ظهر قلب ويدرك معانيها . انه يعبد القيادة . . والجنود يثقون بخبرته في القتال .

لكنــه لا يحب كثـيراً جنود الاحتياط لأنهم بنظره عديمي الاكتراث وجاهلين لأنظمــة المشاة وتسيطر عليهم الميوعـة . فأجهد مارتان نفسه في التعامل معهم وقبلهم كما هم بغية استثمار إمكاناتهم .

وابتسمت له بالمثل معبراً عن صداقتي له . انه رجل صادق ومستقيم لا يعرف المراوغة . فصلاتك به تمتاز بالثقة المتبادلة .

ثم قال لي :

– يوجد في البقعة التي نقصدها عصابة من الفيتنام لا اعرف عدد افرادها بعد .(وثوار الجزائر هم دائماً « فيتنام » حسب تعبير مارتان) . لقد قطعت هذه العصابة في الاسبوع الماضي جميع أعمدة اسلاك المخابرات التي يربو عددها على الثلاثين ممايثبت ان عدد الافراد لا يقل عن العشرة . واعادت العصابة الكرة مرة ثانية بعد ان اعيدت الاسلاك الى سابق عهدها . وفي الأمس قتلت ابن عائلة (سانتس) التي تسكن مزرعة صغيرة .. فلا أمل لنا بالقبض عليها خلال النهار بينما الحظ حليفنا اذا جربنا الكرة اثناء الليل ، فنثير روع العصابة ونستعيد من ناحية اخرى نشاطنا بفضل تمرين كهذا .. ولكن لا يوجد بنظري الا طريقة واحدة لاعادة العصابة الى الصواب الا وهي مجابهتها بالمثل فترتدع .

وفي الساعة التاسعة اجتمعنا حول سيارة الجيب مع الضابط مارتان قبل ان نسلك طريقنا في هذا الظلام القاتم . فأصدر مارتان بعض الاوامر ثم اختار مكاناً يرتاح فيه الجنود قائلا :

– بانتظار ساعة الرحيل سنقوم بزيارة عائلة سانتس التي قتل احد افرادها مؤخراً . فهي كفيلة بان تدلي لنا ببعض الايضاحات الضرورية .

ثم ابتسم متحدياً :

— وسوف تتعرفون هناك على نفسية بعض سكان المستعمرات الحقيقية .. هذه النفسية التي تختلف عما يبتدعه الفرنسيون بشأنها في باريس .

●

كانت النوافذ مقفلة والانوار خافتة في منزل عائلة سانتس . فأمر مارتان بأن تجري جميع الامور في الصمت التام ومع البطاريات الخفيفة لئلا يثير وجودنا انتباه المترصدين في المحلة حول المزرعة .

كان المزارع سانتس منفرداً في القاعة . انه رجل يناهز عمره الاربعين قوي البنية ومنبسط الاسارير لكنه بطيء الحركات لشدة إعيائه . فاستعاد عزمه بفضل حضورنا واستقبلنا ببشاشة وادلى إلينا بالتفاصيل التي جئنا نطلع عليها .

قال ان ابنه كان عائداً ذلك المساء برفقة احد اصحابه فاقترب منهما ثلاثة من الشبان العرب كانا قد وطدا معهم اواصر الصداقة منذ ايام الدراسة ، ولكنهم لم يصدفوا بعضهم منذ اكثر من شهرين. فظن سانتس الشاب ورفيقه ان رفاقهم العرب قد فقدوا في احدى الجولات ثم تعجبا من تطوعهم للثورة ، وما لبثا ان قدّرا رفاقهم الثلاثة لالتزامهم وشجاعتهم وقبولهم بالحياة القاسية الصعبة مهما كلفهم الامر . لقد اخطأ سانتس ورفيقه في ظنونهما اذ ها هم رفاقهم على طريق العودة فرحون ومنبسطو الاسارير .

فتبادلوا التحية من بعد وتابعوا السير باتجاه بعضهم بعضاً .
ونادى احدى العربيين :
– هالو بيار ! كيف حالك ؟
فأجاب بيار سانتس من بعيد :
– مرحباً يا صاح ! ماذا فعلتم طيلة كل هذا الغياب ؟
ثم قال لرفيقه الفرنسي :
– ان الدهر ينقلب رأساً على عقب ، فانك لتجد اينما كان اليوم امثال هؤلاء الشبان يتطوعون في الفرق المحلية ، مما يثير الدهشة ... اني مسرور بملاقاتهم .
وختم سانتس الوالد حديثه مستطرداً :
– لقد قتلوا ابني في هذه الاثناء اذ صوبوا عليه سلاحهم واصابوا منه مقتلاً . اما رفيق ابني ويدعى (جان سولار) فقد نجا مولياً الادبار . لكنه جرح في ذراعه وهو الآن في مستشفى المدينة .
لقد سرد لنا الحادثة بكثير من الحزن ولم يكف عن البكاء منذ ثلاثة ايام فسمعته يصرخ من وقت الى آخر . انه لم يظن ان حوادث كهذه يمكن ان تحدث يوماً !
واردف سانتس سائلاً :
– هل تشربون كأساً ثانية ، ايها السادة ؟
ثم اتت زوجته فخيم الصمت اثر ظهورها فوقف مارتان مودعاً وقال للسيدة سانتس :
– الى اللقاء يا سيدتي . سنعمل ما بوسعنا هذه الليلة كي ننتقم لابنك . فكوني مطمئنة ... فالجيش الفرنسي باقٍ في الجزائر

وهو لا يجازف بحياته سدىً .

فقال الملازم الاول الذي يرافقنا وهو خارج من الدار :

– تباً له ! لماذا لا يخرس بدلاً من ان يسترسل في الدعاوة !

– كلا ليس كلام مارتان دعاوة بل الحقيقة التي يؤمن بها .

●

وعندما حان منتصف الليل جمع مارتان رجاله العشرة قائلاً :

– ان الساعة تشير الى الثانية عشرة وثلاث دقائق . سنسير الواحد خلف الآخر عن بعـــد مترين دون ان ننبس بكلمة واحدة ... ثم نفترق بعد ساعة اثر الاشارة المحددة .

ثم قال لي :

– اما انت فاستلم امر اربعة رجال واتجه شمالاً . ولا تنسوا الاشارات وهي « ليا ١ » « وليا ٢ » ... لا تطلقوا النار اولاً فربما كان المار من احد افرادنا ... تريثوا قليلاً قبل التصويب . اشارة التعارف هي : « ماسينا » والجواب هو « متز » .

ثم قادني مارتان جانباً وقال لي :

– لقد اوصاني احد الزعماء برجلين وارسلهما الي ولكني شخصياً لا احبذ كثيراً الجنود الذين يتعاطون السياسة رغم ان الرجلين مستعدان على ما يظهر للانصياع للاوامر ... سأكلفك بواحد منهما ... انها مناسبة حسنة هذه الليلة للتثبت من قدرتهما .

وذهب مارتان ليعود بصحبة جندي قوي البنية محمل بالقنابل اليدوية وبخنجر على جانبه الايسر . فقدمه الي مارتان وحييته بحرارة .

انه جيرونيمو بذاته ..

لقد تعرفت عليه في هــذه الظروف الخاصة التي مررت على ذكرها .

جنود المقاطعات

ما يزال العجوز الذي اصابـه جيرونيمو على الطريق ينزف دماً وهو يشد بيديه الاثنتيـن على بطنه صامتاً . فنزل السرجان بارال من السيارة متذمراً لتحمله هو وحــده اهواء رفيقـه . فالسرجان بارال هو من الذين لا يهوون هذه المعارك التي لا تؤدي إلا الى الجزرة وهو لا يشعر بلذة حيوانية حيال المجازر البشرية... وهو الآن مرغم ان يتحمل الموقف ولا سيما ان جيرونيمو صديقه وهو لا يستطيع تركه في مأزق كهذا .

وتعالت اصوات من انحاء القرية منبئة بقدوم فوج من الثوار العرب الذين سمعوا الطلق النـاري . فهم بارال بحث رفيقه على الهرب واستقـلا السيارة دون ابطاء . فلم يبــق في الشارع الا الضحية التي ينزف الدم منها بكثرة وقـد صفعته اشعة الشمس فزادته بريقاً .

واقترب الصوت فظهر على اثره جماعة من الرجال بألبستهم المدنية يحمل كل منهم بندقيــة او مسدساً فأحـاطوا بالجريح واسترسلوا جميعهم في الجدال .

انهم ولا شك من « وحــدة المقاطعات » التي يرئسها براتو ، احد الجنود الفرنسيين الحائزين على اوسمة عديدة. وان هذه الفرقة

مزودة بأفضل المعدات الحربية تخبئهـــا في مكان ما من القرية وتحتفظ بها للحالات الخطرة . فصرخ براتو بهم : « لا تتجمهروا هكذا امام القتيل لئلا يهجم عليكم الثوار .. تمركز انت في هذه الناحية وانت في تلك ..وأوقفا السيارات على مدخل القرية » .

لا تظن ان افراد وحدة المقاطعات يقدمون خدماتهم مجاناً بل ان القيادة العامة تكافئهم مقابل كمية من المال تعادل مايقبضه الجندي العادي . وقـد سعت السلطات مراراً لحل هذه المنظمة لأنها تستعمل نفوذها لاغراض شخصية ولكن باءت هذه المساعي بالفشل وعادت العلاقات الودية الى سابق عهدها .

ان وحدة مقاطعة ابراهيم مجتمعة الآن بعدتهـا الكاملة امام العربي الجريح :

– لقد هشموه .. يا صاح ! ألا تعرفه ؟

– كلا .

– انه لاربي المجاهد الذي يسكن في المنطقة (واشار له الى ناحية من القرية) انه ورفاقه لا يخشون امراً .

– كلا ليس لاربي هذا !

– ماذا تقول ؟

– اني متأكد انه ليس لاربي . . اذ ليس على خـــده جرح منديل .

– ان كان اسمه لاربي ام لا فقد ثأروا منه . . .

ثم توقفت شاحنة ضخمة جانب اثنـين من جنود المقاطعات فصرخ براتو :

– اوقفها حالاً !

لقد قاربت الشمس الآن من المغيب وخفت اشعتها واخذ النسيم يداعب وجوهنا ويلفح وجه الصريع . فظهرت عليه علامات الألم . ثم مر جماعة من العمال وعندما شاهدوا تجمع جنود المقاطعات راعهم الامر وارتعشت فرائصهم فتساندوا وتابعوا سيرهم خشية الامر الاسوأ .

لكن الأسوأ قد حدث في الاسبوع الماضي عندما تملكت السكان موجة من الاستنكار فهاجموا البوليس احتجاجاً على الإجرام الوحشي الذي يتوالى من ساعة الى اخرى ، يتوالى كتهافت الثلوج من الجبل فيعيش الناس مرغمين بينها ثم يألفونها فلا يتذمرون . ويعتادون كذلك على الاخطارات التي تحثهم على عدم الصمود امام السلطات الحربية بقولها : « لا يسعنا تنبيهكم كفاية بضبط انفعالاتكم الفردية ... »

لقد ادرك العمال المنصرفون من اعمالهم اسرار هذا الحماس الشعبي امام جثة الجريح وعللوه بأنه بادرة تنبىء بانتقام جنود المقاطعات للقتيل العجوز . فمن الافضل اذاً الانصراف قبل نشوب المعركة والوقوع فريسة لها .

يتعذر على براتو استجواب الحاضرين لأنه لا يتكلم العربية ولكنه سيرغمهم على الكلام بالفرنسية قدر ما يعرفون منها واذا تلعثموا في الحديث استعمل قوته البدنية لصفعهم وحثهم على الكلام . فابتدأ باستجواب السائق الذي اخذ يرتجف خوفاً كالغصن في مهب الريح . وكلما تلعثم ازداد غيظ

براتو وازداد تلعثم الشاب حتى اصبح الجدال مستحيلاً فوجب استعمال اللطمات ...

ثم سمع صوت قدوم شاحنة اخرى مسرعة ... انها سيارة دودج يستقلها عدد من الجنود ... فدوّت عيارات نارية متتالية اذ استغلت الشاحنة العربية برهة عدم الانتباه لتولي الادبار . فصوب الجنود عليها بندقياتهم لكنها ابتعدت مسافة بعيدة الى درجة يتعذر معها اصابتها .

– ماذا يحدث ؟

لم يفهم القائد (موري) الذي نزل من سيارة الدودج شيئاً بسبب ضجيج جنود المقاطعات ، فبدت عليه علامات التساؤل وقال :

– ألا ترى ... لقد قتلوا رجلا ... فأسرعنا كالبرق وأردنا ملاحقة سيارة المجرمين لكنها ولت الأدبار بسرعة هائلة فتعذر علينا ملاحقتها او تمييز ركابها .

فأجاب موري :

– وماذا تفعلون انتم هنا ؟ أليس من الأفضل اللحاق بهم بدلاً من تركهم ينهشون بعضهم بعضاً .

لقد ازدادت في المدة الاخيرة حوادث القتل بالجملة مما ادى الى اثارة اعصاب الشعب وجنود المقاطعات خاصة الذين لم يتمكنوا من وضع حد لها .

ومن هو موري ؟

لقد تزوج موري في السنة الماضية ودعي بصفته سرجان في

الاحتياط الى الجزائر . فلم يقم حتى الآن بجملة تذكر ليقصّها على الجنود فيعجبون به. بالعكس فإن وجوده في الجزائر رتيب هادىء وهو شخصياً لا يطلب الا ان تستمر الحال على هذا المنوال بالنسبة اليه . ولكن ها هو موري في المأزق بغير علم سابق منه وامامه جثة وعشرون رجلاً من المقاطعات ومجرمين هاربين في شاحنة ضخمة ...

ان موري رجل مسالم دون ان يكون خائناً .

مجرد هفوة

حلت فرقتنا في مبنى حجري قديم على سفح الجبل ، شيدته راهبات لجعله مدرسة للبنات .

كانت الراهبات عند وصولنا متأهبات للانصراف رغم ان الضابط المرسل من قبل السلطات الرسمية قد طلب منهن التريث والبقاء للتعهد بتدريس البنات. لكن البنات المسلمات لم يعدن الى المدرسة خوفاً من ان يصيبهن مكروه. فاصبحت المدرسة خالية من التلامذة .

فقال الضابط للرئيسة :

– ولكننا سنذهب لمرافقة البنات الى المدرسة ولحمايتهن .. لست على حق يا اختي في هجر المدرسة فواجبك هو متابعة تدريس البنات مهما كلف الامر ...

فبدت على وجه الراهبة رئيسة الدير علامات التعجب ولكنها اجابت بلطف لتخفف من حدة لهجة الضابط :

– مهما كلفنا الامر ! كلا ايها الكومندان ... سنكون دائماً في صف تلميذاتنا ولكننا لن نجازف بحياتنا . فلم تدنُ ساعتنا بعد ... انتم تقومون بعملكم كما يحلو لكم ونحن نقوم بعملنا ... لكننا سنعود ولا بد يوماً ...يوم لا يبقى لكم في الجزائر اي أثر.

لم يجب الكومندان هنري على كلام الرئيسة بل انصرف من عندها وهو يحتدم غيظاً وقال وهو خارج :

– المشكلة هي هي في الهند الصينية وفي الجزائر ..فالرهبان يخونوننا دائماً واينما وجدوا ، وينحازون الى جانب الاعداء رغم ان ذلك لا يجني لهم نفعاً.فاذا طردنا من هذه البلاد لا يدوم مكوثهم طويلاً بعدنا ... ليتهم يفهمون هذه الحقيقة يوماً ويعقلون ! ولكنهم لن يعقلوا بل يعيدون الكرة اينما وجدوا ... انه لأمر يثير الاسف والشفقة ... ألا ترى يا صاح ... لهذا السبب لا نستطيع عمل شيء في هذه البلاد . فبين الحضارة المسيحية والشيوعية مسافة شاسعة . لا يربح الانسان الحروب بتقديم الخد الآخر ... اننا سائرون الى الهزيمة لا محالة .

●

كان الضابط هنري في (انطوشه) يحضر خطة لليوم التالي ليقهر بها عدواً يدعى كودجا كان ذا شهرة في اساليب القتال فهو الذي خلق ونظم افضل شبكة ثورية في الجنوب الشرقي من الجزائر وهو يقود عدة عصابات تتألف كل منها من عشرين شخصاً . ولكنه فقد في احدى معاركه معنا نصف امكانياته تقريباً . لذلك نخشى ان يستعيد نشاطه اذا ما تركنا له سبيلاً

لذلك . فيجب القضاء عليه قبل فوات الاوان والا اجبرنا على الشروع في العمل من جـديد .

ولكن ما تزال خطة هنري غامضة ، اذ ليس لديه المعلومات الكافية عن مراكز العدو .

ثم رن جرس التلفون الموجود في المطبخ . كان المتكلم براتو. فأخذ يسرد لهنرى بإسهاب تفاصيل ما جرى له ويطري اقدام جنود المقاطعات حيال مقتل العجوز فاغتاظ هنري لكنه ملك اعصابه وتابع الاستماع الى براتو .

والحادثة بالاختصار هي هـذه : لقد هجم بعض الثوار على القرية... ولم يصيبوا الا شخصاً واحداً ثم ولوا الادبار ، فأسرع جنود المقاطعات وهموا بملاحقة الشاحنة المجرمة . ثم قدمت سيارة دودج حربية بإذن من براتو لتلحق بالشاحنة وتساعد جنود المقاطعات .. فسرجان الدودج يطلب اذا امكن بعض الاسلحة والمعدات ليقطع الطريق على المجرمين .

فشكره هنري وطلب منه الا يسرد هذه الاخبار في المقاهي كعادته مما يجزع السكان ويثير اعصابهم . فمن الافضل كتمانها وان كانت - ويا للأسف - في اغلب الاحيان صحيحة .

ففكر هنري في الامر وقال لنفسه ان الحادثة هي ذات اهمية لأنها ولا شك تتعلق بكودجا الذي ينوي القضاء عليه قريباً . فنادى اثنين من الجنود واعطاهم هذه التعليمات :

- الاتصال حالاً بفرقة المارشال جوفر ليرسل الينا مبعوثين حربيين لمطاردة المجرمين .

– انذار جميع شركات النقل وإرغامهم على اخذ الاحتياطات اللازمة عندما يقتضي الامر .

وقـال هنري لنفسه : « اني مرتاب بأمر موري . فليس هو الرجل الذي يصلح لمثل هذه الامور » .

ثم رنّ جرس التلفون . انه احد الضباط يعلمه ان السرجان بارال والجندي جيرونيمو يريدان مقابلته حالاً .

لـماذا يا ترى ؟ ربما بسبب معركة ما كما هي الحال دائماً مـع جيرونيمو .

وعند قدومهما شرح له بارال تفاصيل حادثة بعد الظهر قائلاً له : ان العجوز قـد قتل بالرغم من جيرونيمو الذي نفذ منه الطلق عنوة . يعود السبب الى اخطاء تركيب بنـادق الجنود . فكثيراً مـا تنفذ الرصاصة بمجرد لمس الزناد . فرغم إخطـار السلطات بأمر هذه البنادق ظلت على حالها. لا يمكننا اذن اتهام جيرونيمو بقتل العربي لأن هنـاك مبررات عدة تضعف من مسؤوليته . ولكن بمن يلحق الجنود ؟ والشاحنة العربية التي ولّت الادبار وقد اتهم ركابها بجريمة لم يقترفوها ؟.

لا مجازفة على كل حال في اللحاق بالشاحنة فإنها اقترفت ولا شك جرماً ما والا لما هربت من الجنود . يجب القبض على ركابها.

ولقطت آلة الراديو حينئذ مخابرة عاجلة منقولة الى الضابط هنري من احدى مراكز الجبال مؤداها «ان احدى فرقنا العسكرية قد تمركزت في الجبل وان سيارة دودج تابعة لنا قـد شرعت في اطلاق الرصاص على شاحنة يستقلها ركاب عرب تبعـد عنها

مسافة قصيرة ... سنتصل بكم فيما بعد ... »

فكرر هنري لنفسه ان لا سبيل لردع جنوده الآن عن القتال . فان كانت المسؤولية على عاتق الفرنسيين ام على ركاب الشاحنة ، لا سبيل الى التبصر . وتمتم هنري في قرارة نفسه :

– بشرط ان يحسن موري القتال .

لا يقدر هنري جنوده الاحتياط ، بل بالاحرى لا يعطف عليهم.

راحة الضمير

لقد عزم موري على تأدية مهمته افضل تأدية وقد اداها فعلاً بكل حذاقة .

لأنه يتحدث غالباً مع العرب ولا يدمن على الشراب او يسخر من الغير . اعتبروه رجلاً مائعاً لكنه لم يفقد ثقته بنفسه ظاناً ان الفرصة لم تسنح له بعد . انه لا يبحث عن هذه الفرصة ، بل ولا يتهرب منها .

اما اليوم فقد تبدلت الامور وأتته الفرصة. فأما ان ينتهزها وتتحول سخرية رفاقه الى احتقار يستحيل عليه مقاومته ، وإما ان يجابه الثوار ويعلو شأنه بين رفاقه فيصغون اليه دون ان يجرؤوا على مقاطعته بتهكمهم .

لم تدم المعركة طويلاً بين موري وركاب الشاحنة اذ ارتأى موري ان ينتظر برهة ريثما يخيم الظلام وتنفذ ذخيرة الركاب العرب فيصوّب عليهم اسلحته ويرغمهم على الاستسلام .

ولكن ظلت الشاحنة مسرعة . وفي الساعة الثامنة وخمس دقائق كانت الشاحنة في قرار الهاوية وقد اخترق الرصاص ركابها

بصورة شنيعة فماتوا للحال .

فتأثر موري من نجاح خطته وشكر ربـه . لأنه اداها على احسن ما يرام دون ان يصاب احد من جنوده بأي اذى . فكل همّ موري ان لا يرهق ضميره بقتل او عجز احد من رجاله ! فيا لسذاجته !

اشتباه بالجملة

لقد تجلى بهاء الطبيعة الجزائرية في الخريف بعد اشهر الصيف القائظة . فقال الكومندان هنري لنفسه : يا لها من بلاد جميلة !

وتوجه ببطء نحو مركز الجنود وهو يتأمل في السكون الذي يخيم حوله ويتطلع الى الافق البعيد حيث تبدو المدينة مضاءة في غور الظلام .

ان هنري رقيق الشعور يحب التأمل وسرد القصص الطويلة التي تلهيه عن متاعبه ومسؤولياته اليومية . يقصهـا في المساء ساعة العشاء عندما لا يفكر في خطة الغد . فيسرّي عن الغير ويريح اعصابه .

لقد انقضى النهار على احسن ما يرام بفضل غياب الكولونيل ووصول ألبسة الجنود التي وصلت اخيراً من فرنسا ولانه حل محل الكولونيل دون صعوبة .

– قف !

قالها الملازم بقوة ليضعف من رهبة قدوم الكومندان هنري. فوقف الضباط وقفة التأهب وعلى محياهم ابتسامة –هنري رجل

جذاب – منتظرين امر : «استرح» .

●

دار الحديث حول مختلف الامور يعالجها كل واحد من ناحية. فبين ثمانية ضباط على المائدة ، دار الحديث حول خمسة مواضيع في نفس الوقت دون ان يهتم شخص بواحد منها او يتضح مايقال بشأنها . يترك هذا النوع من الجدال السبيل لكل واحد في الكلام !

وتدوم هذه البلبلة الى ان يلقي الواحد او الآخر كلمة او ملاحظة دون غاية معينة فيتحول مجرى الحديث .

وبعد عشر دقائق قام الكابتن مارتان بهذا الدور فقال متيقناً انه سيؤثر بسامعيه لأن المجد يهم كل واحد منهم :

– يبدو ان موري قد اعتلى المجد !

فأجاب هنري :

– نعم ... ولكن لا مبرر للمبالغة ... لقد قضى على بعض الهاربين بكثير من الاقدام وقد اثر عمله على اهالي قرية ابراهيم ... ولكن لم تحدث أية معركة بينه وبين ركاب الشاحنة . لم يوجد على كل حال في الشاحنة اي أثر للسلاح .

– ماذا تقول ؟

– ربما قذف ركاب الشاحنة بالأسلحة آملين أن يستعيدوها في حال نجاتهم ... وربما هرب احدهم بالأسلحة دون أن ينتبه اليه موري ، وربما لم يحملوا الأسلحة . انها احتمالات معقولة . ليست الحادثة على كل حال ذات اهمية . تدخل فيها جنود

المقاطعات دون مبرر . أما موري فقد أدى مهمته بدقة لا اكثر ولا اقل ولا سبيل لتقليده وساماً لعملٍ كهذا !

– ولكن ماذا سنكتب فى التقرير اليومي إذا لم توجـــد اسلحة في الشاحنة ؟

لقد كلف (لابروني) وهو معـلم في إحدى مدارس باريس بتقديم تقرير في الصباح والمساء ، بصفته رجـــل فكر ، الى القيادة العامة في الجزائر . انه مربع الوجه ، قصير القامة ، قوي البنية وذو شعر أشقر مجعد. انه تعبير صادق عن الفعالية. اذ يفكر طويلاً قبل تقديم اي تقرير . ان هذه التقارير هي بمثابة حرب الجزائر بالنسبة اليه،فهو يؤدي عمله بذمة .فقال له مارتان:

– ما معنى سؤالك ؟ هل تريـــد ان نكتب التقرير عوضاً عنك . سينحصر عملك بتقديم التقارير وقبض الاجرة .

يلذ لمارتان معاكسة الجنود المدعوين الى الجزائر اذ انهم بعـد شهرين من الخدمـة العسكرية لا يزالون كالعذراء الشابـة حيال المجهول .

أما لابروني فلا يلذ له ان يعتبر رجلاً عديم الخبرة او مثالياً باريسياً فقال :

– سيان عنـدي ان كانوا يحملون السلاح أم لا . سأكتب كعادتي انهم كانوا محملين بالأسلحة ولكني احذركم انه اذا طلبت منكم الاسلحة في نهاية الشهر ستجدون أنفسكم فيمأزق لإيجادها.

●

ان مشكلة الاسلحة وذكرهـــا فيالتقرير تتطلب حذراً

شديداً اذ ان القانون يأمر بذكر عدد الأسلحة ونوعها في التقرير بعد نشوب اي معركة .وقد صدر القرار إثر الاستخفاف في سرد الحوادث فطلبت السلطات بأن نحتفظ بالأسلحـــة المذكورة في التقرير ريثما تقف على مصدرها مما يرغمنا على التدقيق في ذكرها فلا نعلن إلا عن قسم من الاسلحة كي نحتفظ بالباقي لوقت الحاجة حين لا تتوفر لدينا ... او تنضب بكاملها .

اما في الحادث المذكور اعلاه فـلا يستطيع لابروني الاقرار بوجود الاسلحة فقال لنا :

– سأكتب اننا لم نعثر معهم على اسلحة .

– كلا ! لا تفعل ذلك فاذا كتبت اننا لم نعثر على اسلحـة قاموا بتحقيق في الامر وسودوا الملفات مما لا يسهل اعمالنا .فاذا لم نجد اسلحة لا تتكلم عنها لا اكثر ولا اقل . لا تتحدث الا عن الجريح في الشارع وجرم ركاب الشاحنة .

لم تعد هناك مشكلة !

فاذا سعت السلطات المدنية الى اتهـام الضباط لتبرر بعض مواقفها الشاذة واتخذت قضية الجريح وسيلة تستغلها ، فإما ان ان توجه الشكوى الى القيادة العامة التي تتهم بدورها الفرقـة التي اشتركت بالمعركة واما ان توجهها الى السلطات الادارية فتقع مسؤولية الخطأ في التقرير على عاتق الدرك وهم رفـــاق جنود المقاطعات فلا يوقعونهم في الشرك . فلا ريبة من هذا القبيل .

ان موري اذاً هو في مأمن من الخطر . وهذا امر طبيعي .

تنحصر القضية بأمر تافه بسيط ودون اهمية بالنسبة لواقعية

مارتان وبأمر طفيف بنظر الكومندان هنري الذي يعالج كل يوم اموراً اخطر من هذه . وتنحصر القضية بنظر المعلم لابروني بقضية تقرير شكلي . اما الامر فيختلف بنظر الكابتن الذي وصل مؤخراً لاستلام احدى الفرق . انه يخفي دائماً آراءه الشخصية خلال المزاح فلا يقف عليها احد بوضوح .

انه يبدو الآن على غير ما يرام فتكلم بصوت خافت صمت له الجميع للاصغاء وقال :

– اني اعتذر عن التدخل ولكني اريد ان اوعز اليكم فقط انه اذا قتل بعض العرب بيد جنودنا دون ان يعثر معهم على اسلحة فمعنى ذلك ان الضحايا لا تنتمي الى الثوار بل الى سكان القرية الآمنين وهذا يؤدي الى افساد علاقاتنا بالشعب .

فبدا هذا الكلام غير واضح اذ سأل هنري :

– ما تعني بقولك ؟

– اعني انه ربما اخطأنا في القضاء على ركاب الشاحنة ... فربما كانوا ارباب عائلة او متزوجين او ابناء فتبكي عليهم امهاتهم اذ ان مقتل الآباء والابناء والاشقاء يثير بغض الشعب لنا . اني اوعز اليكم ان قتل الابرياء هي وسيلة سيئة لم نأتِ الى الجزائر لاجلها . . اني اعتذر منكم مرة اخرى اذ اني حديث العهد بينكم ولم اختبر بعد حياتكم في الجزائر . فربما كان علي ان استمع دون ان اعارضكم .

انها المرة الاولى التي يعبر فيها الكابتن جوليان عن رأيه فارتبك كل من يحيط به على المائدة . . . لا لأنهم يشاركونه رأيه .

ان جوليان مخطىء وسوف يدرك خطأه. فليس الثوار رجالاً معينين لهم علامة مميزة على جبينهم . الثوار هم اي كان وفي اي مكان! فيجب اما قتلهم دون تمييز واما العدول عن البقاء في الجزائر .

فقال مارتان للكابتن جوليان بلطف :

– انك على حق يا كابتن مئة بالمئة .. نظرياً . اما في الواقع فانت امام امرين : فإما ان تعتبر كل عربي تصدفه في الشارع او في القرية او في الشاحنة بريئاً حتى تثبت فيه العكس ، واما ان تؤدي عملك بدقة بأن تحمي رجالنا قدر الامكان من كل اذى ممكن . فاذا تبنيت امر الاول عرضت رجالك للموت المحتم... فاني انصحك باعتماد الحل الثاني . ولا يوجد الا وسيلة واحدة لتطبيقه وهو اعتبار كل عربي مشتبه به هو ثائر بالقوة وفوضوي ممكن ... لأن الحقيقة هي هذه ... يا سيدي ... ولا تحدثني بعد الآن عن العدل والمحبة ... فلا علاقة بين الموضوعين. لا اقول ان المحبة غير موجودة ، بل ان لا علاقة لها بموضوعنا . انها في غير مستوانا . فاذهب وتحدث عنها في باريس للسادة الدبلوماسيين الذين وضعونا في هذا المأزق ...

وتابع مارتان :

– اما عرض قضايا ذمة وضمير واعتبار المجرمين بالقوة ابرياء تظن فيهم خيراً فهذا فرض يكلف رجالاً ، يا سيدي العزيز ، ويكلف شباناً وابرياء ايضاً ، يكلفنا حياتنا. تكفيك مدة خمسة عشر يوماً لتتأكد من ذلك ...

اثناء هذا الحوار كان لا يسمع في الخارج وقد خيم عليه السكون والظلام الا دوي عيارات نارية وتنقل الفرق العسكرية التي قررت ألا تأوي إلا بعد ان تنفد ذخيرتها الحربية . فكل ما يتحرك مشتبه به .

اما الكابتن جوليان فتطلع حوله وهو على المائـــدة بعينيه السوداوين وشعر انه جازف ولا شك برأيه دون تبصر : انــه ينفرد وحده بهذا الرأي !

٢

السّلم ولا الحرب

تباً لهذه المهنة !

اننا نسير منذ اكثر من ساعتين في الظلام الدامس وبصمت تام دون ان نرى حولنا شيئاً وقد ارسلت الفرق العسكرية بالتوالي حسب ارقامها الى مراكزها المحددة لتحيط المنطقة بشكل دائرة وتسهل علينا حصار القرى الثلاث قبل بزوغ الفجر .

اشار الكابتن جوليان بالتوقف رافعاً يده . فقلده باقي الجنود بالتوالي ليتلمسوا بعضهم ثم طلب الكابتن من احد جنوده ان يعطيه بطارية. فأعطته اياها يد سوداء لم يتبين صاحبها . واضاءها فرأى ان احدى الفرق قد توقفت ريثما نلحق بها . ثم تداولنا اباريق القهوة نأخذ منها حصتنا ونحتسيها ، لاسيما ان القهوة هي الشراب الوحيد الذي يسمح لنا به جوليان خلال العمليات الحربية .

ثم سمعت خطوات سريعة بين العلّيق فارتعش الجنود وصوبوا

بنادقهم تجاه مصدر الحركة . وصرخ ثلاثـــة رجال معاً بصوت واحد واضح كي يصل الى السامع :

– من هنا ؟

– ها ! لا تلعبوا دور «الزواف[1]» ... اني انا ... الارنب !

فخرج السرجان بارال من مخبئه بقفزة واحدة لئلا يديم الشك. انهم يسمونه الارنب بسبب اذنيه الطويلتين ... لم يكن بمفرده بل يرافقه شاب في سن الرابعة عشرة تقريباً يسير امامه والبندقية مصوبة عليه .

– انه راصد ... قبضت عليه وهو ينحدر من قمة فلم ينتبه الي ... انه حقاً يحسن الترصد ، هذا الشاب !

وسمع صوت طيف هائـل من بعيد قائـــلاً بصوت واضح ينذر بالخطر :

– هل اتكفل به ؟

فقاطعه جوليان بقوة وهو يزيح يد الملازم عن الشاب وقـد مدها بسرعة اليه :

– كلا !

وبعد برهة من الصمت اردف الكابتن جوليان بصوت خافت :

– سأعتني انا به !

لقد قرر الكابتن جوليان قبل قدومه انـه اذا حصلت مثل هذه الامور فهو لا يحب ان يغافله الجنود ويأخذونه على حين غرة للقيام بأعمال منكرة ثم الاحتماء بمسؤوليته الشخصية . فهو يفضل ان يقوم بنفسه بمثـل هذه الامور .

---

١ ـ طائفة من الجنود الجزائريين .

انها الخطة الخامسة التي يشترك فيها منذ اسبوعين اي منذ وصوله الى الجزائر . فهو يعرف اذن القضايا التي يتعرض لها في تأدية هذه الخطة. والخطط العسكرية تستمر بصورة رتيبة !

●

لقد قرر القيام بالحملة بعد ظهر امس بعد ان حصلت القيادة العامة على معلومات بشأن الجناية التي حدثت قرب طلعة يوسف .

حدثت هذه الجناية في الظروف التالية : في الساعة السابعة صباحاً رأى فلاح عربي واسمه منصور عبدالله وهو احد مستشاري البلدية الذين لم يستقيلوا بعد ، رأى عجوزاً يدنو منه باعياء ومنحني الظهر وهو يلبس ثوباً يخفي وجهه ويتكيء على عصاً عقداء . فظنه متسولاً . فاقترب هذا العجوز بتؤدة من منصور وقال له : «مساء الخير يا منصور» ثم طعنه .

وفي الحال نزع العجوز القاتل ثوبه ورمى عصاه فأصبح رجلاً نشيطاً عمره ثلاثين سنة انضم اليه عاملان زراعيان كانا يعملان في الحقل مع منصور تاركين معداتهما الزراعية ليلحقا به . وهمّ الثلاثة بالانصراف حيث وصلت سيارة وتوقفت بانتظارهم . اما العاملان فكانا سابقاً ممن يثق بهم البوليس في احدى القرى القريبة من قرية ابراهيم . اما المجرم كما وصفه منصور قبل موته فهو بطل لعبة كرة القدم في المنطقة ويسكن في قرية قريبة . وقد عثر على السيارة في زقاق صغير في قرية ثالثة .

ان هذه القرى الثلاث التي كانت آمنة حقيرة تبدو منذ

الامس ذات وجه جديد وقد أُخذت العدة لحصارها .

●

تعهد جوليان باستجواب الراصد المقبوض عليه فهم باستجوابه دون ابطاء لأن الراصدين بطبيعتهم يحملون في جعبتهم معلومات وافية كفيلة بافادتنا اذا اعترفوا بمكان تمركز رفاقهم .

يضع المحاربون هؤلاء الراصدين في اعالي الجبال حول القرى حيث ينعمون بقسط من الراحة ويتناولون الطعام ومهمتهم هي انذار رفاقهم بأي خطر . فيختارهم الرؤساء بين الشبان الرياضيين الذين لم يدنوا بعد من السن القانونية التي تؤهلهم لحمل السلاح فيسمح لهم عمل الراصد بالاشتراك في القتال . وتحيط جماعة من هؤلاء الشبان كل ليلة بالقرى المشتبه بها وتهجر المدارس لهذه الغاية .

يعرف جيداً القرية او المنزل الذي ينوي الاتصال به في حال الخطر ولكن يصعب حمله على الاعتراف به مع ان نجاح الخطة يتعلق بهذا الاعتراف .

ثم عاد جوليان الينا : لقد حصل على هذا الاعتراف بأن الثوار يجتمعون في اول منزل من القرية حيث يتزودون بالاسلحة اللازمة ويعدون خطة الهجوم . فيتوجب علينا نحن تحقيق خطتنا ابتداء من هذه النقطة الاساسية . فامر جوليان :

– اعدوا وسائل المخابرات !

وبدأت الاتصالات :

– آلو .. احمر .. هنا كاردينال .. هل تسمعني .. استجب . !

– آلو ازرق ... هنـا كاردينال ...هل تسمعني . ما هو وضعكم ؟

– آلو اخضر ...

وسمعنا بالتوالي مخابرات فرقنا الزرقـاء والحمراء والخضراء المتمركزة حول الجبل ..

ثم مرت ربع ساعة .

واستقر جوليان على العشب فاخرج سندويشاً من جيبـه ليلتهمه بشهية وتطلع الى اطراف الجبل ، والى القرى الثلاث ، والى الصبي المتورم الوجه الذي ينام الآن في الحفرة ، والى اسلاك الراديو .. ثم قال :

– تباً لهذه المهنة !

انها لمهزلة مملة رتيبة لم تعد تستهوي احداً من الجنود بما فيهم جوليان رغم انه يأمر الآن بخلاف رفاقـه الذين ينفذون اوامره باسمه : فيطلقون النار باسمه ويخابرون باسمه . انه في كل مـكان يجيب على اي كان . انه لاول مرة اليوم يعيش الحرب بنفسه .

لم يأمر منذ اكثر من اثنتي عشرة سنة اذ انـه جرح ثلاث مرات في حملة فرنسا والمانيا وأصابته الرصاصة الاخيرة في بطنه مما منعه من الاشتراك في حرب الهند الصينية . ومنذ ذلك الزمن لم تسنح لجوليان الفرصة للقيادة .

ودّوى صوت عيار ناري بالقرب منا فحمل جوليان نظارتيه وامر مساعده بالاتصال بالفرقة القريبة فاعلنت هذه ان الطلق قد صدر من اول منزل في القرية – كما اعترف الصبي – وقد اصاب

هذا العيار جندياً في ساقه وهو الآن في حالة خطرة .

يقود هذه الفرقة التي اعلنت الخبر نائب الضابط غامبر . انه رجـل مستقيم يؤدي مهمته العسكرية في الجزائر بصدق متبصر يميزه عن باقي الجنود .

– تريث مكانك .. سأخابرك بعد برهة !

تفحص جوليان وضع الفرقةبالنسبة الىالقرية التي يطلق منها الجزائريون النار وتيقن انها في وضع معقول يسمح لهم بالهجوم وبمنع سكان المنزل من الاستمرار في اطـــلاق النار . ثم تابع مخابراته :

– آلو كاردينال .. هل تسمعني !

– آلو .. هنا كاردينال ..اني استمع اليك.تكلم ببطء .اني مصغٍ اليك ...

تدور الاحاديث في جميع ثكنات الجيش حول نفس اللحن وهو ان الضباط « رجال ادنياء » . اما الحقيقـة فهي ألطف من ذلك . اذ انالضباط هم قواد لا اكثر ولا اقل يتوصلون غالباً الى هذا المركز بفضل اختيار سياسي . « فالصالحون للقيادة » اذا طمحوا بهذا المركز اصبحوا زبائناحد الوزراء ... انالشواذات عن هذا الواقع موجودة ولكن قليلة . ان جيشنا آخذ بالفنـاء من رأسه حيث تحاك المؤامرات والمنافسات الفردية .

ومن ناحية اخرى يهوىالضباط اعطاء الاوامر وهـــذا امر طبيعي . اما في الجزائر فكثير من الضباط لا يصلحون لاعطـاء

الاوامر ولا يقدمون استقالتهم خشية مس كبريائهم وطموحهم بل ولا يسمحون لمساعديهم بالنيـــابة عنهم بل يقومون بانفسهم بالاعمال الخطرة ويفشلون ، رغم انهم ارادوا منـافسة من سبقهم من القواد في الحصول على النتائج الفعلية لا بدافع الوطنيـة بل المنافسة .

لا يدرك الاضرار التي يؤديها بعض قواد جيش الجزائر الا الجيش نفسه [1] .

●

تملكت جوليان الريبة من ان يتدخل احد هؤلاء القواد في الامر ويصدر الاوامر دون تبصر فينقاد له الجنود في الحال كآلات طيعة بين يديه .

وتوقف (لوبيل) على قمة الجبل متمركزاً ليسهل الاتصالات:

– آلو .. كاردينال .. هنا (بون) بنفسه . لماذا لم تستمر اتصالات الاخضر ؟

– لقد اطلقت عيارات نارية على وحداتنا من اول منزل في القرية سأرسل فرقة لحصار المنزل .

وتوالت العيارات النارية كالمطر على رجالنا ..

– كاردينال .. لا تقتربوا من المنزل .

وساورت جوليان الفكرة بهجر الجيش والتنعم بحياة هادئة

---

١ – لقد استطعت في الجزائر التعرف على قائـد رفيـع الخلق والتواضع يستحق كل احـترام . وهذا يشعرنا بالفارق بين القاعدة والشواذ .

بعد ان يقلد عدة اوسمة على اعماله البطولية . ولكنه استعاد جرأته واقدامه ... وقال في نفسه ان جميع الجنود الذين يحيطون به يشعرون بنفس الشعور بينما هم يتساندون ويستعيدون جرأتهم للتقدم ...

ليس عليهم الآن الا الايضاح .

وفي الحال وجد جوليان رجلاً مسرعاً قادماً نحوه ببزته العسكرية ومجرداً من السلاح : انه غامبر . فقال له جوليان :

– ما هذا ؟ هل جننت ؟ استرح قليلاً ثم عد لنتحدث معاً، انه امر ...

وعاد غامبر وهو ما يزال يلهث وقال لجوليان :

– يكفيني ما رأيت .. سأطلب منك منحي اجازة ابتداء من يوم غد الاثنين لأعود الى فرنسا .

– ولماذا ؟

– ان المجازر البشرية تثير قرفي ... ان ...

– وانا ايضاً اكره المجازر البشرية ..

فاجاب غامبر بتحدٍ دون اعتبار لقانون الانضباط العسكري:

– اني احدثك بصراحك فلا تكن وقحاً .. ويكفيني ما شهدت . لقد قدمت الى الجزائر لأسعى مع رفاقي بالاحتفاظ بالجزائر تحت الحكم الفرنسي لا لأحولها الى رماد .. ان ما نفعله هنا مهزلة لا معنى لها ، كلها قتل وتقتيل دون تمييز لئلا نعرض أنفسنا للخطر . ولكني اعتقد ان جنودنا لا يجازفون بحياتهم لو عادوا الى فرنسا وتوطنوا فيها بدلاً من ان تدوم هذه المهزلة

القذرة اطول من ذلك ومن تحويـل جميع الجزائريين الى ثوار فكلمـا قتلنا ثائراً جزائرياً خلقنـا عشرة محله .. اني لم آتِ الى الجزائر للقيام بعمل قذر كهذا يا كابتن .

ودعا احد الجنود الكابتن جوليان فذهب هـذا ليعود بعـد برهة بعد ان اعطى تعليماته . فتابـع غامبر :

– حملة جديدة ! لقـد رأيت الكومندان يعطي تعليمات الى سرجان فرقة الاحمر قائلاً له : « ان صعاليك القرية قـد أنفدوا صبرنا فيجب ان نحاصرهم لأنهم يخبئون بالتأكيد الاسلحة.. واذا ما وجدت اسلحة فاكتب انك عثرت عليها ثم تبحث عن هـذه الاسلحة فيما بعد » . وأعطاه قنابل يدوية ليوهمه بأن الثوار مسلحون ... لا يهمني ان كان الجزائريون فوضويين ام لا ولكني عندما اشهد هذه النيران (وأشار الى الحرائق والدخان والجنود) اتساءل الى اين نحن ذاهبون ؟..

لا يجهل جوليان هـذه الحقائق التي تدعمها الاحداث ذهاباً من حادث موري وخمسة ابرياء الى الحادث الذي يصفه الآن غامبر .

وبالرغم من ذلك ، فإن القرية تضم ثواراً مستعدين للقتـال بمعداتهم الكاملة !

واستمر إلقـــاء القنابل الى ان حظي الفرنسيون بالانتصار فقبضوا على ثمانين اسيراً وبدأوا بإحصاء عـدد القتلى والأسرى العرب . اذ كنت ساعة اطلاع القيادة على نتيجـــة حملتنا .

ومر امامنا جنود فرقة الازرق وهي تحمل اكياساً فيهـــا

الدجاج التي نهبته من القرى واخذت تعرضها على الرفاق بافتخار :
« سنأكلها معاً هذه الليلة ايها الاصحاب عدا حصتنا... »

ماذا تستطيع ارادة فردية فعله في ظروف كهذه حيث يجري القتال بعيداً عنها فتنصاع الارادة للحماس الاجماعي الذي لا يترك بعده الا المهزلة المؤسفة والاراضي المكتسحة الجرداء والمجزره وحقد الشعب على فرنسا التي يتشتت نفوذها بسرعة . اي عمل حسن قام به جوليان اليوم؟ هل سعى لتدارك المجزرة ؟ لم انه يفعل شيئاً.. بتاتاً.

ودنت ساعة الظهر وما زال جنودنا محني الظهر من شدة الاعياء ينتظرون امر انتهاء الحملة . وافرغت اكياس المعدات الحربية وما زالت رائحة الدخان والرصاص تتصاعد . فشعر جوليان بالتقيوء .

ومرت هيلوكبتر القائد مروراً فوقنا ناقلة خبراً لجوليان:
« قل لجنودك انني راضٍ جداً من تصرفهم اثناء الحملة . لقد قضينا على جميع الاهداف . فابعث لي الى الجزائر بلائحة الاسماء التي تستحق المكافأة. اجعلني على اتصال بحالة الجرحى. الى اللقاء . »

استمع الكابتن جوليان الى الراديو الذي يردد له الخبر وهو يحدق بعينيه امامه ويداه منقبضتان في جيوب بزة القتال .

التقرير

سأذكر طويلاً تفاصيل مقابلتي ذات يوم مع الكومندان مرقس، انه رجل ذو تبصر وعزم يعمل مع جنوده ضد الدوامة التي

تفصل تماماً بين الفرنسيين والعرب . ستدوم الحقيقة طالما بقي على الارض رجال امثاله يعملون ضمن اطار محـــدود وبصورة رمزيةوإن لم ينالوا نتيجةعاجلة،فان اسماءهم تتردد من قرية الى اخرى مقرونــة بالامل . انهم مدنيون يعملون كالرهبان المرسلين الى بلاد الجزائر .

مرقس . اني اعرفه منذ صغري.

لقد سر واستغرب لقدومي . اذ اننا كنا نلتقي صدفة اثناء تنقلاتنا . فقال جوليان لمرقس :

– لقد وصلت الى الجزائر في الشهر الماضي وحاربت مع فرقة من الجنود مؤلفة من شبان نشيطـين فشاركتهم عملهم الرتيب وشهدت عدة حملات جعلتني اعتقد ان ما نفعله هنا يقودنا الى الفشل لا محالة والى فقدان شرفنا الفرنسي ..

انك تدرك ما اعنيه .. لكني اعتقدت ان الارادة الفردية كفيلة بتحويل مجرى الامور وما لبثت ان اعترفت بفشلي ... اني ذاهب وجئت لأودعك. لكني اريد الاستفسار عن امر يهمني: هل الحالة على ما هي في جميع انحاء الجزائر ؟ ولماذا ما تزال هنا؟

– لم اكن في جميــع انحاء الجزائر لاجيب على سؤالك ولكني تعرفت على كثير منها وعملت مع خمس عشرة وحدة مختلفة في ظرف تسعة اشهر .. فهمت سؤالك والجواب هو اننــا نتصرف كالأغبياء في شتى المناطق .

ثم تابع :

– لقد فكرت ملياً بالأمر وكتبت تقريراً بشـأن السلام في

الجزائر سأعطيك نسخة منه ، انها لا تفيدك شيئاً بل ربما تعزيك وتبين لك انك لست وحيداً في الدوامة .

وقدم مرقس نسخة إلى جوليان ثم اخذ يقيس الغرفة ذهاباً واياباً ثم نظر إلي وقال :

– عليك ان تعترف بالحقائق بصفتك صحفي اما نحن فقد اعتدناعلى الصمت واذا اردنا الكلام يوماًلم تتوفر لدينا الامكانيات . اما انت فلا تجازف اذا وصفت الحوادث كما هي . يجب ان تنشر هذه الحوادث ليطلع عليها الرأي العام .

– ولكني لست في الجزائر بصفتي الصحفية .

– موافق ولكن .. بعد خدمتك العسكرية ؟

– سأعمل ما بوسعي رغم التحفظ المألوف الذى تفرضه علينا السلطات فيما يتعلق بالامور ذات الصبغة السياسية .

– سأعطيك إذن تقريري وتصرف به كما تشاء .. هل يحلو الأمر لك ؟

اخذت التقرير واحتفظت به الى يوم قررت نشره ضمن هذا الكتاب وهو :

تقرير حول اقرار السلم في الجزائر

لقــــد قطعت السرية ٦٠٠٠ كيلومتر في الجزائر واشتركت في عــدة حملات عسكرية في عشرين منطقة وعملت مع اكثر من خمس عشرة وحدة مختلفة وتيقنت في شتى النواحي ان الاساليب المتبعة هي في الغـــالب

فوضوية وغير ناجعة .

حيال هذا الأمر تطرح عدة اسئلة حرجة منهـــا : كيف يؤدي الجيش المهمـــة التي أوكلت إليه ؟ ما هي الاخطاء التي ارتكبها وأسبابها ؟ كيف يمكن تجنبها ؟.

يساند حركة الثوار ارادة الشعب الذي يظـل على اتصال بهم ويوفر لهم المؤن والمخبـأ . فـــلولا هـذه الدعامة الشعبية لانكسروا نظراً لضعفهم عـــدداً وعدةً ... ولولا معونة الشعب لأصبح القضـــاء على الثوار سهـلاً اذ ان السلطات العسكرية عاجزة عن التمييز بين الثوار والسكان الآمنين فتضطر ازاء فقدان المعلومات الى قمع المشاغبات بصورة عميـاء فتضاعف اخطاءها . فكلما قضت على بريء ظنته ثائراً،حل عشرة ثوار حقيقيون بدله الى يوم يجابهنا الشعب بكامله فنتبع سياسة المجزرة -- وهذا حل غير مقبول -- واما ان ننسحب ...

يتوجب على الجيش ان يجمع شمل الشعب وان يحوز على ثقته : هذه هي الناحية السياسيـة من الموضوع . اما القضاء على العصابات الثورية الذي يشكل الناحيـــة الحربية من الموضوع فلا يجب ان يأتي الا في الدرجـة الثانيـة .

لجمع شمل الشعب وكسب ثقته يجب علينا التعرف على الشعب بواسطة اتصالاتنا الانسانية به .. معرفـة

الشعب وكسب ثقته هما امران مختلفان . فالثقة تتعلق بموقفنا تجاهه، فاذا اتخذنا موقفاً انسانياً ونبذنا التعسف العقيم واتبعنا خطة تعتمد المساواة وتردع عن بذر الشقاق بين الاوروبيين والعرب ، تمكنا من كسب هذه الثقة .

يجب الاعتراف ان الواقع يناقض هذه الحقيقة اذ ان الاوامر الرسمية تحتمي غالباً في نظريات عامة غامضة لا تطبق ، وان صلحت للتطبيق .

ان فساد السلطة الحالي يؤدي الى اهمال عام في تصرف الوحدات العسكرية ... والى فظائع منكرة في موقفها حيال السكان .

يتأرجح هذا الموقف بين الضعف الصبياني والقوة المجرمة .

تترك بعض الفرق كل الحرية للثوار بقطع الاسلاك الكهربائية وقطع الطرق واحراق المزارع والمدارس ثم يتملك الغضب المفاجىء هذه الفرق فتبرر لنفسها الاعمال الوحشية كالنهب والتقتيل والتعذيب التي تتعدى الحد وتفتح المجال لاقذر الدعاوات...

ومن ناحية اخرى ينمو في نفس الجنود شعور بالنقص بسبب فشلهم فيضاعفون حاجاتهم عدداً وعدة وينزوون رغم ذلك في مراكزهم .

وما هي النتيجة؟ باءت اعمالنا بالفشل وتعذر اتصال

الجنود بالشعب بل اصبح هـذا الاتصال مستحيلاً .
اما الحملات فتجري كأنها غاية في ذاتها !
انكم ولا شك تقيسون المسافة التي تفصل الواقع عما يجب ان يكون . لم يدرك الجيش المعضلة الجزائرية بل يحارب الآن دون تبصر اذ ان الاشجار تخفي عنه الغابة فبدلاً من ان يحصر اهتمامه بالشعب الذي يشكل اساس المعضلة يلحق بالثوار للقضاء عليهم وهم لا يشكلون الا خطراً ثانوياً .

ا.س.ب ٨٥٠٨٤

الامضاء : الكومندان مرقس

وبعد ان قرأت التقرير رفعت نظري نحو مرقس وسألته :
– هل احتفظ بهذا التقرير ؟
فأومأ برأسه علامة الايجاب ، وتلا جوابه هـــذا فترة من السكون قال جوليان بعدها:
– اننا نحول الثورة الى حرب يقاتل فيها جميع سكان الجزائر ضدنا ونخلق الدمار بينما نعتقد اننا نوطد الأمن والنظام .
فقال مرقس :
– اننا نكذب يا جوليان... نكذب اكثر مما نعتقد، فأصبح الكذب طبيعتنا الثانية الى درجة اننا لا نعرف اننا نكـذب . لقد اصبح الكذب واجباً . انك تعلم الى مايؤدي ذلك في موقفنا نحو الشعب الذي يقرأ صحفنا .. !
كنا ننتظر بصمت رأي مرقس، فان له طريقة ناجعة في اقرار

السلم في الجزائر بفضل ضمه ثمانين جزائرياً مسلماً الى فرقتـه التي تجوب القرى النائية، واتخذ مساعداً له ضابطاً مسلماً اسمه حوش بوسكين .

لم تبق لنا الا بضع دقائق للبقاء مع مرقس فقال له جوليان :

ـ اني طلبت الاذن بالعودة الى فرنسا اذ لا عمل لي هنـا الا اذا حذوت حذوك وعملت على الصعيد الفردي او اشتركت في الجرائم التي تحدث هنا .

ـ لا يجب ان تتصرف يا جوليان ، اذ ان عملنـا هو اقرار السلم في الجزائر ... ان العرب لا يضمرون الحقـد لفرنسا خاصة بل للاستعمار عـامة ، فيجب ان يكون جيشنا منزهاً عن فكرة الاستعمار وهو قد فعل العكس كأن غايته الوحيدة هي الحفاظ على حقوق عدة أفراد على حساب الجزائريين.

لقد جعلنا من الجنود القادمين من فرنسا مجرمين ونستطيـع نحن الاثنين ان نحولهم الى ابطـال او بالاحرى الى رجال. فابقَ هنا وقم بعملك الفردي كما تظنه الصواب. فلا يبقى هنا الا الحق او المحبة . اذا كان للشعوب نفسية فعلينا ان نحافظ هنا على روح فرنسا الحقيقية .

لهذا السبب عليك ان تبقى في الجزائر لتلعب دورك الخاص كباقي الجنود .

●

وعند المساء تناولنا الطعام في فندق سان جورج حيث يجتمع الجنود والصحافيون والنواب الذين يقـدمون الى الجزائر كي

« يتفرجوا على الحرب » كما يقولون .

ان تناول طعام الغداء في السان جورج شرف محصور ببعض الناس ذوي الشهرة في المجتمع، اذ لا يؤم هذا المطعم الا الطبقة العالية والنساء الحسان .

اجتمعنا بالكولونيل اسبانيول وهو رجل طيب المعشر فسألناه :

— ماذا شهدت هناك ؟ ماذا يقال عن حرب الجزائر ؟ ألم يدركوا مغزاها اخيراً ؟

وما اتممت سؤالي حتى وصل الجندي جيرونيمو قائلاً :

— لقد حاصر الثوار طريق ساكامودي ... عشرون قتيلاً وعدد من الجرحى ...

— اي فرقة ؟

— فرقة الكومندان مرقس . . وقد اختفى مرقس . .

وتفاصيل الحادث ان عدداً من الثوار قد اقتحموا مركز مرقس لينهبوا الاسلحة فلاحقهم مرقس مع فرقته ونشبت بينهم المعركة .

كودجا

ان كودجا معروف جداً بصفته احد المحرضين على الثورة الذين اتخذوا موقفاً حازماً وصمموا على القيام بها الى ان يطردوا الفرنسيين من الجزائر .

ان سلاحهم هو القوة التعسفية او الوحشية الحيوانية التي تغذي شعورهم وحماسهم . فالعمل الناجح بنظرهم هو العمل الوحشي .

فاذا خيروا مثلاً بين قتل جندي مشهور بتعسفه او قتل مرقس، لم يترددوا في القضاء على مرقس الذي يسعى الى توطيد علاقات اخوية بين شعبي الجزائر وفرنسا . يريدون ان يستأصلوا جذور الفرنسيين من الجزائر بأي وسيلة كانت ! انهم لا يريدون الاتفاق ولا يقبل موقفهم الجدال .

هناك من لا يشاركهم هذه الآراء .

يدعو البعض هؤلاء باسم «اعوان بورقيبة» وهم ستالينيون في عملهم وذوو عقائد مختلفة .

يعتبر هؤلاء ان طرد الفرنسيين من الجزائر هو حلم غير ممكن التحقيق وان الوسيلة الوحيـــدة لحل المعضلة هو تأليف دولة جزائرية تكون متفقة مع فرنسا .

فأي فكرة سوف تتحقق ؟ هل يجب الاستمرار في القتـال كما يفعل اعوان كودجا؟ ام التنبؤ باتفاق بين الفريقين؟لانستطيع الاجابة على هذه الاسئلة في الوقت الحاضر إزاء توتر الموقف بين الفريقين.فاذا قبل فريق،ارتاب الثاني في الأمر وهكذا دواليك ! فيتحولون من ستالينيين الى رقيبيين !

ان المجزرة الوحشية التي وقعت ضحيتها فرقة مرقس هي مثـل مؤسف على فظاعة الحملات العسكرية. ولقد قال بوسكين قبل ان يلفظ انفاسه الاخيرة : « يجب الاستمرار » . امـــا الشخص الثاني الذي نجـــا من الموقعـــة فهو مسلم وقابع الآن تحت شجرة . هل هو صادق يا ترى ام خائن ؟

انه صديق الضحايا المقتولةوصديق المجرمين انفسهم ،فكيف

نعامله ؟ كصديق لنا نحميه من انتقام الاعداء ؟ ام كخائن بالقوة كفيل باعطائنا معلومات هامة اذا تعهدنا بحمايته ؟

وفي هذه الاثناء جمع الكابتن (جوف) جنوده ليكرر لهم القواعد العسكرية المعهودة قائلاً بلهجة عامية :

– لقد طفح الكيل ... رجل طيب مثل مرقس يسعى لاكتساب ثقتهم يشكرونه بهذه الطريقة ! ما ارذلهم !

اصغوا الي ايها الرفاق . اولاً : كل رجل يسير بسرعة تزيد على اربعة كيلومترات في الساعة هو هارب بنظرنا فابعثوه الى ربه . ثانياً : اذا توقف رجل في الشارع صوبوا عليه الرصاص فاذا هرب كان هربه دليلاً على فعل منكر يقوم به . فهمتم ؟

فاستقبل قوله بموجة من الضحك روّحت قليلاً عن الجنود ومحت حقدهم بعد وحشية الموقعة .

ثم قال اسبانيول :

– جوف ، انا الآمر هنا ... ستتبعني مع باقي الضباط الى (لوفوا) حيث اعطيكم بعض التعليمات .

اذ ان اسبانيول خبير بما ينشأ بعد هذه المواقع حيث يثور السكان ويقتحم بعضهم المراكز الحربية ، انه يجهل شخصياً تجربة مرقس ولكنه يعتبرها « عاطفية » على حد قوله ولا أمل فيها !

الخجل من التطوع

شع النور من احدى الخيم وظهر طيف انسان على قماشها ثم

خرج جندي وتقدم نحونا :

– الملازم الاول بودار قائد مركز (لوفوا) ، احتراماتي ايها الكولونيل .

ان بودار رجل لطيف ، عمره ست وعشرون سنة دعي الى الجزائر بعد تخرجه من مدرسة المهن حيث تعرفت عليه . انه شاب مستقيم وجريء ... فقال له اسبانيول :

– بودار ، استجمع رجالك . لي حديث معهم .

– لكنهم نائمون ، ايها الكولونيل .

وبدت على ملامح بودار سيماء المرضعة التي تحفظ الاطفال الموكل امرهم اليها .

– اني طلبت منك ايقاظهم لأني بحاجة اليهم . فايقظهم ثم احيطك علماً بموضوع المحادثة !

وادرك بودار بسرعة اسباب المحادثة فشرح لنا (اسبانيول) الخطة : ١ – عدم بعث فرقة ضخمة لئلا ينشب عراك يقضي على سكان القرية . ٢ – عدم اثارة جزع الثوار . ٣ – البحث عن العصابة وعن مرقس بواسطة فرقتين صغيرتين من الجنود مجردين من المعدات الضخمة تظلان على اتصال دائم مع المركز العام .

ان القيام بعملية كهذه أمر خطر يتطلب المجازفة وعدداً من المتطوعين . فقال بودار جازماً :

– لن يتطوع احد لهذه المهمة !

فاجابه هنري باحتقار :

– نعم ! سيتملك الحماس ثلاثة او اربعة من الرجال

فيتطوعون . . . اما الباقون فلا تطلب منهم اكثر من تأدية مهنتهم اليومية. فاذا اصدرت امراً نفذوه جبراً لا اكثر ولا اقل. ولكن التطوع...

وفي نفس الوقت خرج الكولونيل وهو يهز كتفيه بعد ان اصطف رجاله إثر ايقاظهم من النوم.. ثم تقدم منا قائلا :

– لقد طلبت منهم عشرة متطوعين... سيأتون الى هذه الخيمة بعد خمس دقائق من التفكير . فنحن بانتظارهم !

وبعد بضع دقائق تقدم عدد من الجنود ، ودخل احدهم وقدم نفسه :

– الكابورال لابيار من الفرقة الثانية ، الفوج الثالث . .

– هل انت متطوع ؟

– نعم ، ايها الكولونيل . .

– حسناً !

وتابع الجندي :

– اريد ان ابرهن للثوار اننا لسنا عاطلين عن العمل . . . فلينتظر رفاقي . . . اما انا فأريد ان اعمل شيئاً.

–حسناً ! البس بزة القتال . سنعطيك التعليمات بعد لحظة .

وعندما خرج الجندي قال لنا اسبانيول :

–لابأس به ! ترى، هل له تأثير على رفاقه؟ ماذا يعمل في حياته المدنية ؟

– لقد كان من الذين يوزعون النشرات ويكتبون على الجدران عبارات ضد « الحرب القذرة » عندما دعتهم السلطات

للاشتراك في حرب الجزائر ثم عندما قدموا الى الجزائر اصبحوا متعصبين للحرب يريـــدون لعب دور الابطال ويراهنون على القضاء على الثوار بقوة سواعدهم .

وهكذا وجد هؤلاء الجنود وسيلة يتميزون بها عن رفاقهم ويتهربون من حياة لم يعد لها معنى !

ثم دخل جندي آخر وقدم نفسه :

– سرجان بريك ، الفرقة الثانيـــة الفوج الاول ، ايها الكولونيل .

ان بريك رجل معروف اخذت اتطلع اليه وهو يشرح امره للكولونيل .

لم يكن بريك في فرقتي ولكني استلمت امراً بزيادة عـــدد الجنود فطلبت بعضهم من الفرق الاخرى. وأمرت يوماً باستعراض الفرق فطلبت من مساعدي تقـــديم السرجان المسؤول عن كل فرقة :

الفرقة الاولى : السرجان (بومي) . نهار سعيد ...

الفرقة الثانية : السرجان بريك . غائب ... في المستشفى العسكري .

الفرقة الثالثة : السرجان (شانين) ، نهار سعيد .

الفرقة الرابعة : السرجان (فالو) غائب في المستشفى .

– ماذا في الامر ؟ اثنان من رؤساء الفرق في المستشفى ؟

– سنرسلهما غداً صباحاً في الساعة الثامنة ليقدما فرقتيهما .

وفي اليوم التالي وقف بريك وقفة التأهب .
– السرجان بريك ، ايها الملازم . هل طلبتني ؟
– نعم ، بريك . هل انت مريض ؟
وظل بريك جامداً دون ان ينبس بالجواب :
– اني اسألك لماذا كنت في المستشفى عنـــدما استعرضت الفرق امس ؟
فلم يجب بريك .
– اصغ الي يا بريك . قل لي ما تنوي ان تقول والا عاقبتك لا اكثر ولا اقل !
فأجاب بريك :
– كل ما في الامر اني والسرجان (فالو) « فرنسيان صالحان » .
– وماذا بعد ؟
– ماذا ؟.. يصعب علي الشرح ... ان عقائدك السياسية ... اما نحن ففرنسيان صالحان !
فهل اتحداه وأختتم المجادلة بمعركة نخرج منها مهزومين ؟
لقد دام الصمت طويلاً ... الى ان قلت له :
– اسمع يا بريك ؛ اني لا أريد معرفة عقائدك السياسية .انها لا تهمني ... فاذا كنت فرنسياً صالحاً عليك ان تنصاع للأوامر ثم عند عودتك الى وضعك المدني نستطيع ان نتباحث في الموضوع. اما الآن فأنت تحت اوامري ... سأستعرض غداً الفرق وآمل

ان تحضر مع رفيقك (فالو) .

وانصرف بريك ، لكني علمت في اليوم التالي ان بريك سوف يحضر لكنه مصمم على عدم تحيتي عندما انقدم منه : انها لمشكلة بالنسبة اليّ . فاذا تظاهرت بعدم الانتباه مرّ الحادث دون صعوبة اما اذا تحديته حدث مالا يمكنني التنبؤ به . ولا سيما ان الجنود يساندون بريك اذ انه رئيسهم المباشر الذي يعيش بينهم .

وفي الساعة الثامنة بدأت الاستعراض بالفرقة الشمالية والمعلوم ان فرقة بريك هي التالية .

في تعليلي للموقف لقد نسيت امراً : ان بريك هو في نفس المـأزق . انها تجربة ايضاً بالنسبة اليه فاذا نجح في خطته وكانت له الكلمة الاخـيرة زادت ثقته بنفسه . فهل تستحسن الجماهير موقفه ؟ ان عمله سوف يميزه عن غيره فيقدرونه .

ومر الحادث كالبرق كأكثر الامور المهمة، بين تبادل النظرات وتكهرب الجو واعياء الواحد او الآخر او ارتباكه بسبب قدح بسيط من الكحول شربه البارحة .

فبعد تردد طويل – لا اعلم اليوم سببه – رفـع يده بالتحية وهو ينظر الى البعيد .

●

هكذا تعرفت على بريك الذي يتقدم اليوم الى مركز اسبانيول للتطوع . فقال له اسبانيول ليختتم الحديث :

ـ حسناً يا بريك ! نستطيـع الاتـكال عليك . هل تظن ان بعض رفاقك يتطوعون لهذه القضية ؟

ـ لا اعتقد ايها الكولونيل . انهم خائفون .

ـ خائفون ! خائفون من القتال ؟

لقد تملك اسبانيول الاستغراب وتدخل بودار ليقول :

ـ كلا ايها الكولونيل..انهم لا يخشون الحرب بل يخجلون من التطوع ! فاذا امرتهم بالقتال قاتلوا وحاربوا بجرأة ولكن لاتطلب منهم ان يتطوعوا وان ساورتهم الرغبة فترة خجلوا من رفاقهم وامتنعوا . انهم يخجلون من التطوع .فلا تغضب عليهم. انه لأمر طبيعي ...

فقاطعه اسبانيول :

ـ غير معقول ! ليس بينكم غير الشيوعيين والفاشيين للتطوع .. غير معقول !

ان هنري خبير بنفسية الجنود اكثر من اسبانيول، قد كان على حق عندما قال لبودار : « انت المسؤول عن عدم تطوع بعض جنودك » اذ ان بعض الفرق تتطوع بكاملها، ولا يتطوع احد في فرق اخرى نظراً لقوة شخصية الضابط او سلطته عليهم . نعم، انه على حق ، اذ ان الامر متعلق بعدم التميز عن الغير :لذا يتطوع الجميع او لا احد. ان بودار على حق : ليس الجنود خونة بل هم لا يحبون القيام بعمل يتعدى المطلوب . وإلا ظنهم الغير قانعين بحالتهم محبون لها بدلاً من ان يظلوا آلات طيعة مجهولة بين ايدي الرؤساء ... فاطلبوا منهم ما تريدون ولكن لا تسألونهم عن رأيهم !

وتيقن اسبانيول من الحقيقة هذه : لن يتطوع الا الشيوعيان

القديمان والسرجان بريك !

كنا نسمع في الخارج جلبة الجنود في حديثهم ومن بعيد بعض الطلقات النارية المتتابعة التي تذكرنا بالخطة التي ندبرها للعثور على مرقس لا لكي نتباحث في نفسية انسان هذا العصر .

ثم دخل سرجان شاب الى الخيمة وهو بارال الملقب بالأرنب، انه يؤثر على رفاقه بفضل موهبته في البلاغة . وصل يرافقه جنديان.

كان اسبانيول يحب بارال ، وقد اتخذه تابعاً له ثم ضجر هذا من وظيفته وطلب الالتحاق بفرقته الاولى . فقال له اسبانيول :

– هل انت متطوع ايضاً ، ايها الارنب ؟

– كلا ، لم آت الى هنا لهذه الغاية ، ايها الكولونيل ! بل ارسلنا رفاقنا لنقول لك انا لسنا جبناء حسبما طلبت من السرجان بريك ان يقول لنا فجئنا لنشرح لك .. اذا اردت ان نتطوع جميعنا تطوعنا دون وجل ولكن يجب ان تأمرنا بذلك ... اما التطوع الفردي فلا نحبذه .

– ولماذا تخجلون ؟ انكم تثيرون اشمئزازي . هل تخشون ان يهزأ منكم بعض العملاء الموجودين في فرقكم ؟ هذه هي الحقيقة !

– نعم ايها الكولونيل .ان هذا التعليل يتبناه بعض الجنود الذين لا يريدون ان يقال عند عودتهم الى فرنسا انهم تطوعوا . اما عدد هؤلاء فلا يزيد على العشرة امثال (تروفي) . لكن اغلبية الجنود لا يتذرعون بهذا السبب ... ليسوا ضد التطوع ، بل غير راضين عن بقائهم هنا وعن معاملة الرؤساء لهم :لا يأكلون جيداً ولا ينامون ولا تصلهم المعدات ، انهم غير راضين وما زالوا

يتذمرون !

ثم اخذ احد الجنود الواقفين خلفه يتمتم في قرارة نفسه قبل ان يتكلم بوضوح وبلهجة عامية :

– وبعد وبعد ... انها عائلاتنا التي تأكل الحصرم وترسل لنا رسالة تلو الاخرى طالبة المال ولا نرسل لنا شيئاً. لقد قلناها في الجواب الاول والثاني ان تنتظر . فماذا نقول اليوم في الجواب الثالث ؟ لا نجيب ، لا اكثر ولا اقل . ان هـذا الوضع يضعف من عزمنا .

كان اسبانيول يصغي الى الحديث بامعان فتبين المسافـة التي تفصل نظرته للوطن عن هذه الفرق المشتتة العزيمة . انها لمسافة شاسعة تعيد بطل عدة مواقع شهيرة الى الواقع الاليم . فمد يده الى رأسه ليسرح شعره الى الوراء بينما احتفظ بيده الاخرى في جيبه وهو يحدق ملياً ببارال :

– بارال .. فرنسا ! .. هل تؤثر كلمة فرنسا في نفوس جنودك ؟

فارتبك السرجان الشاب ونزع من جيبه غليونه ليلعب به ويستعيد ثقته بحمله شيئاً مألوفاً لديه ثم قال :

– ايها الكولونيل ، اني لا ادرك جيداً ماذا تعني ولا الصلة بين الموضوعين .. انت على خطأ في حكمك علينا بقساوة . لقد قال لي الرفاق انهم مستعدون للتطوع شرط ان يعطى هم امر بذلك .

وانسحب الوفد بعد ان حلت المعضلة : سيختار بودار بأمر من الكولونيل سبعة رجال عدا الثلاثة المتطوعين اختياريـــاً

ليرافقونا في البحث عن العصابة.

●

انها الساعة الثانيةصباحاً . وسيتم الرحيل فيالساعة الخامسة بعد ان ننال قسطاً من الراحة .

وخفت البلبلة في الخارج بعد ان اختار بودار الرجال السبعة وذهب الجنـــود الى فراشهم الا الحرس . فحسدناهم على نومهم ورغبنا في نيله الا ان اسبانيول ظل يقيس الغرفة ذهاباً وايابـاً وهو يفكر. ثم حدق بجوليان قائلاً :

ـ وانت ، ما رأيك بالامر ؟ هل يبدو لك طبيعياً ؟

لقد نفد صبر جوليان في ابداء رأيـــه فرفع رأسه وقطب حاجبيه لينظر بإمعان الى اسبانيول وقال :

ـ بصراحة .. نعم ! ان استغرابك للأمر هو الذي يثـــير العجب .. فتأمل في موقفهم . انهم لم يعيشوا الا داخل بلادهم دون ان يطرحوا على انفسهم اي سؤال . ولأول مرة ينظرون الى فرنسا من الخارج كالاطفال الخـــارجين من احشاء امهاتهم فيتفحصونهن كأنهم لم يتوقعوا من قبل مشاهدتهن .

ليس وجه فرنسا الحقيقي ما ترسمه لنـا البطاقات البريدية الملونة بل حياة الجنود في هذا البلد . انه وجه الفوضى وعـدم قبض الاجرة. ثم وجودنا فيالجزائر وكرهنا للثوار الذين نقتلهم كالطريدة ، ثم وجـه المستوطنين الفرنسيين الذين يستقبلونهم كالكلاب ..وماذا بعد ؟ الى اي مستقبل همذاهبون ؟

ـ هل تعني ان فرنسا مجرد فكرة وهمية !

ـ كلا ، بل اقول ان فرنسا هي التي نراها من خلال هـذه الاحداث التي تضعف معنويات الجنود وايمانهم بالقيم .

ثم توجه جوليان نحو اسبانيول كأنه يريد ان يهمس بأذنه :

– ويوجد الآخرون الذين يشعرون بحاجتهم الى التضحية واقتحام المخاطر فيصبحون محترفين للتعذيب والتقتيل ويشعرون بفراغ في نفوسهم بينما هم يريدون الحياة ! انهم يبحثون عن الوطن الذي سلحهم ولا يجدون الا هذه الصورة المتلبدة. لقد قبلوا بالتضحية بأنفسهم من اجل فكرة فأصبحوا خونة او مجرمين . ولا تقع مسؤولية امرهم إلا على عاتقنا .

ـ علينا ؟ المسؤول هو الحكم الذي يرسل لنا شباباً من هذا الطراز.

– تذكر ، ايها الكولونيل ، الايام التي قضيتها مع لوكلر في التشاد... حين لم يكن عمر هؤلاء الشبان اكثر من عشر سنوات. كنتم تحملون في نفوسكم صور ملحمة عظيمة تعيشونهـــا كل يوم وتحرقون بها اقذار الحياة اليومية . فأي حميــة داخلية اعطيتم لجنود اليوم ؟ لأي قيم يجابهون المصاعب ويقاتلون ؟

فاخرج اسبانيول ببطء يديه من جيوبه وفرك وجهه مرات عديدة وتوقف الجميع في الخيم اذ لم يبق إلا ساعتان للرحيل ...

وقال الكومندان هنري وردد لجوليان متيقناً جملة مألوفة ترضيـــه :

– ان المدعوين من فرنسا هم في النهاية جماعة قذرة لا تصلح لشـــيء !

فلم يكترث جوليان لهذا القول ولكنه قال في قرارة نفسه :
– وليس هؤلاء الجنود الا الدولة الفرنسية نفسها !

مغزى هذه الحرب

تركت الفصيلتان لوفوا قبل بزوغ الفجر سالكة طريقين متجانسين بحذر وانتظام. يأمر الاولى الكومندان هنري والثانية الكابتن جوليان بينما ظلت الفرق على اهبــة التدخل للاتصال باسبانيول .

كنت شخصياً مع هنري .

ولقد دام المسير طويلاً في القرى المقفرة التي اخلاها الخوف من السكان الذين جزعوا على انفسهم من ان نفرض عليهم يوماً الشهادة ضد الثوار ، او ان يطلق عليهم جنودنا الرصاص دون ادراك نواياهم .

لم نر الا بعض العجائز قرب ابواب المنازل جلسوا يتطلعون الينا .

لم نرد التخفي بل بالعكس اردنا اغراء الثوار على مجابهتنا باظهار ضعفنا وقلة عددنا .

كانت العودة اصعب من الرحيل بسبب الاعياء . ولم نكتشف دليلاً عن مكان مرقس . القرى مقفرة كيوم الامس وما يزال العجزة على ابواب المنازل .

تبدو الطريق كأن لا نهاية لها . امــا المتطوعون فتحولت خيبتهم الى التهديد دون ان يجدوا من يقضون عليه . وهنري صامد رغم آلام جرح قديم في عنقه ومنشغل البال . فربما نجحت

فرقة جوليان وحصلت على نتائج فعالة ؟

كان الجنود في الثكنة ينتظروننا بعد ان انبأناهم بالوصول . اما فصيلة جوليان فلم تصل بعد لكنها خابرت انها عثرت على جثة مرقس وعلى ثلاثة من رفاقه وان جوليان عائد وهو يحمل في كيس جثة رفيقه المقطعة بالفأس بصورة وحشية .

في احدى المنازل المتهدمة كان اسبانيول يلقي تعليماته برفقة الكولونيل غالان . ويقال عن غالان انه جندي .. جندي بكل معنى الكلمة ، جندي لم يفقد صفات الجندية .

في احدى زوايا الغرفة يستمع غالان الى اسبانيول يتكلم عن حالة الجنود النفسية . فقال اسبانيول :

- ان ما يريبني ويثير اشمئزازي هي هذه البلبلة في النفوس فلست متفقاً مع النفوس الباكية المسيحية التي تشجب اضطهاد العرب ... ان الخطـــأ السياسي هو عدم التمييز بين التصرف الاخلاقي الاجماعي والتصرف الفردي . انهم لا يعرفون ما يبغون . فاذا طلب منا مثلاً ان نقضي على العرب الى ان يستسلموا ، كما فعل الاميركيون بالهنود ، فلن اناقض هذا الحل . ان لهذا الحل معنى ولكنه لا يفيدنا ... فالجنود على حق اذ انهم لا يعلمون ماذا يطلب منهم .

لم يدرك غالان فحوى هـــذه الآراء اذ أنه يحبذ الوضوح والتفكير المنطقي فقال :

- في الامر شيئان : المسائل المستعجلة والمسائل الحرجة . وهما مختلفان غالباً . فالمسألة المستعجلة هي الجيش الذي يؤدي عملاً

لا يفهم مكنونه فتخور عزيمته .

ووقف غالان وتابع :

-قابلت هذا الصباح مختار قرية ردج فقال لي : « لم اعد استطيع تأمين التنظيفات » فسألته : «اي تنظيفات» فأجاب «جمع الجثث» فكثيراً ما يجد – عدا الضحايا المخفيـــة ست او عشر جثث عربية في الحفر يعرف المختار من قتلهم ولمح لي بأن نتكفل نحن بهم فساورتني الرغبة في القضاء عليه . ولكن بماذا اجيب؟ ان مصير جيشنا هو مشكلة مستعجلة فاذا لم نجد لهـا حلاً فقدنا آخر ما تبقى لنا مما يمكننا ان نتكل عليه .

●

استمعنا الى غالان باهتمام : استمعنا الى هذه الحقائق الواضحة المنسية التي يحتفظ بها القلائل من النــاس الذين ينتمون غالباً الى حزب ديغول سنة ١٩٤٠ . يقدر كل واحد منهم المسؤولية كأنه ديغول نفسه ويحتفظ بذكر فرنسا التي حررهـــا في المنفى . فغالان مثل ساطع هو لنا بمثابة شعاع من الامل .

والتحق جوليان بنا ليستمع الى غالان ثم ليحدثنا عن تفاصيل مقتل مرقس لا عن طريقة قتله الشنيعة .

يشعر جميع الرجال المجتمعون هنا بالمرارة والتردد والخجل فهذه الليلة لاتخيم فقط على الدمار الذي يحيط بنا بل ايضـاً على ماضينا في الجزائر . . . لا يعقل ابداً ان نسلم المستقبل لمجرى العدم بل يجب ان يتحول الوضع ويتحسن .

الأمل

بعثة كشفيّة

حل عملي

ان مئات الجنود المصطفين بالقطار الخماسي لا يتميزون عن الثوار إلا بفضل اسلاك الراديو التي تسهل عليهم المخابرات . انهم املنا الاوحد وربما غرورنا .

●

لقد اكتشف الكولونيل غالان مثل مرقس ان الهدف الاساسي هو الاتصال بالشعب الجزائري الذي يتعلق به مصيرنا في الجزائر.

لقد احتفظت بالنص الذي خطه معاً غالان واسبانيول والذي يوضحان فيه السبل التي يجب اتباعها وحقيقة المعضلة العسكرية . واليك مقتطفاً من النص :

« ان الضباط الذين اشتركوا في عدة حملات عسكرية في الهند الصينية يستنكرون وضع الجيش الفرنسي في الجزائر الذي لم يسبق له مثيل في الفيتنام . لا يتعلق

الامر بالجيش نفسه وبقوته بل في معاملته للشعب . فما انفكت وسائل الاستعلامات وطرق دفـــاع الشعب مرضية في الهند الصينية بعكس الوضع الفاشل الذي يجد المسؤولون انفسهم امامه اليوم ..

اذا قضى الثوار الجزائريون يومـاً على جيشنا بسهولة فلن تفشل فقط السياسة الفرنسية التي ارسلتنا الى هنا ، بـل تقع المسؤولية على عاتق الجيش نفسه الذي يفقد من ثم معنوياته ...

ان الحل الجديـد للمعضلة هو في الاتصال بالشعب الجزائري . ولا وجود لهذا الاتصال اليوم بل ما انفك يتبدد شيئاً فشيئاً . فكيف نحييه من جديد ؟ (...) »

لقد كتب اكثر من مئتي تقرير بهذا الشأن في مختلف الفرق العسكرية تؤدي جميعها الى هـــذا الحل الوحيد وهو : الاتصال الانساني بالشعب الجزائري واستعادة ثقته والا باءت مهمتنـا بالفشل . ليست هذه الآراء جديدة لا في الجزائر ولا في اي بلد آخر بل انها حقائق معترف بها منذ ايام فرسان جيتوريكس... ولكن كيف نحققها عملياً واي خطـة نتبع ونتبنى ؟ اذ لا قيمة لحلنا اذا لم يكن عملياً . لقـد اصبحت رغبتنا في الحلول العملية حرجة ماسة منذ ان حدثنا غالان عن مشا كلنا وامورنا المهمة . اما اسبانيول فهو اشد اقتناعاً بهذه الحقيقة وهو واثق من قدرتنا على تحويل مجرى الامور في الجزائر . فكان لحديثه معنا صدمـة اعطتنا الحمية اللازمة ، بعكس غلان المتحفظ بطبيعته ، دون ان

يجهل العراقيل التي تضعها السلطات الرسمية امامنا .

اما هنري فهو دائم الغليان في داخله يحتفظ بذكر معاركه في الهند الصينية ويقص لنا مقتطفات منها بلذة تشعرنا بأن مرارة الفشل قد اضمحلت عن ذاكرته بفضل محبته للهنود الصينيين. انه يأمل بالعودة يوماً اليهم والعيش بينهم . انه لم يشعر بعد بالمحبة نحو العرب ولكن التجربة السلمية تستهويه .

ومارتان ايضاً متأثر بهذا الحـــل . فلم يمنعه ذكاؤه العملي من تحليل الامر اذ ارغمه الفراغ في معنويات الجيش على البحث عن طريقة يخلصه بها . ماذا ؟ يصعب عليه الجواب. انه على كل حال يبحث عن منفذ يخلص الجيش من المأزق .

يبحث جميعهم عن حل المعضلة وكل واحد حسب نظرته لها اما جوليان فلم يعد يثق باقرار السلم في الجزائر لكنه ظل مصمماً ان يعمل ما بوسعه ليمنع الشبان من ان يصبحوا عنصريين اومجرمين. فانخرط مختاراً في فصائل الكومندو .

ان نص الالتزام الذي يتقيد به الكومندو هو هذا، وقد نشر في صحف الجزائر :

«اني اقبل بالخدمة في احدى فصائل الكومندو الرحالة التي تسعى لخلق جو من الثقة مع الشعب الجزائري وصد الثوار عن عدوانهم . واني اعلم جيداً ان هـذه الفصائل الصغيرة تتعرض لمخاطر عديدة في تنقلها وادرك مـدى هذا الخطر واقبل به .

واتعهد عــلاوة على ذلك باحترام شعار الكومندو

الرحالة وهي اعتبار جميع الجزائريين اصدقاء لي لا مشتبه بهم الى ان يثبت لي العكس واقيس المجازفة التي اتعرض لها في ايماني بهذا الشعار الذي يتعلق به نجــاح مهمتنا واقبلها بكامل ارادتي » .

لكن تجربة الكومندو هذه محصورة في المكان والزمان . في المكان اولاً لأنهــا تتنقل في مقاطعة صغيرة من الجزائر ، وفي الزمان لأنها تباشر عملهــا بفضل عدد من الجنود لم يبق لهم الا شهران او ثلاثة من الخدمة العسكرية .

لكن الصحف الجزائرية ادركت ان التجربة هذه تتعدى هذه المهمات . ان الكومندو موقف فكري حيال الواقع الجزائري او طريقة مختلفة لحل المعضلة . فاذا انتشرت الفكرة بين جميع الصفوف تحولت وسائل اقرار السلم في الجزائر تحولاً تاماً .

وغالان نفسه متيقن من نجاح الخطة اذ قــال في اجتماع له برؤساء الفرق :

– ايها السادة، يتعلق امر انتشار عقيدة الكومندو وفعاليتها على عاتقكم . فاذا نجحتم في كسب ثقة المسلمين تبدل الموقف رأساً على عقب ... ولكن كونوا على حذر ... فلا تطلقوا النار دون تبصر ولا تعرضوا أنفسكم للخطر دون مبرر فتضعفوا معنويات هذه الفصائل ... اني اشكركم واتمنى لكم عملاً مثمراً !

تحقيق الحل

دنا وقت تنفيذ اول رحلة الى سيدي سالم .

لم يكن المسير سهلاً اذ اوقفتنا عدة طلقات نارية لم نتبين مصدرها . كان ذلك في الحسبان اذ ان خطتنا تثير غيظ الثوار الذين صمموا على القضاء على جميع العرب الذين يستقبلوننا وعلى سحق فصائلنا .

وما ان بددنا شملنا لنحتمي من الرصاص حتى امطرت السماء بشدة فاحتمينا بين الصخور . وبعد ان خرجنا من مخابئنا لم نجد الثوار وضللنا الطريق ! فسلكنا طريقاً مستعينين بالبوصلة الى سيدي سالم وثيابنا مبللة بالمطر .

فتعجب عمر سعيد وهو رئيس القبيلة من حالتنا هذه وقدم لنا الطعام والملبس .

في سيدي سالم

جلس النائب الاول باسون قرب الشمعة المنيرة وظهر خياله على بلاط الدار .

ثم دخل الدار ثلاثة رجال قدمهم لنا عمر سعيد بصفتهم اشقاءه . فدام الصمت مدة الى ان سأل باسون :

ـ الا نستطيع زيارة المكان لنسري عنا ؟

اما جيرونيمو فكان منطرحاً على الارض وهو يعالج غصناً من الزيتون لئلا يظل عاطلاً عن العمل . وربما اعتقد جيرونيمو انه لايليق بعدد كهذا من الرجال ان يجلسوا دون نساء بينهم !

باسون لايجيب على احد ... رغم انه اتى الى هنا .. للاتصال بالغير .. ! فليس المزاح من شيمته ...فادار رأسه نحو المترجم بن علي قائلاً :

ـ اسأله ان كان راضياً عن الحصاد ..

فترجم بن علي لعمر الذي اجاب :

ـ شوي ، شوي ...

وفي الوقت ذاته سمعنا قرقعة في الخارج ارتعش لها الحضور وقام على اثرها كوف وجيرونيمو من مكانهما متجهين نحو الباب الذي يحرسه احد جنودنا .

وعادا وهما ممسكان بشاب عربي نشيط وقوي العضلات فأدخلناه الدار . وفي الحال فقد عمر سيماء عدم الاكتراث وارتمى امام الشاب قائلاً لباسون :

ـ ايها الرئيس .. قل لهم ان يطلقوا سراحه ... انه ولدي احمد .. ولدي ... ايها الرئيس .

ـ اتركوه ... ألا ترون انه لايريد ان يفعل شيئاً ضدكم ؟. انه ولده .

ثم تكلم عمر وترجم لنا بن علي :

ـ يقول ان ولده اوشك على الموت في الشهر الماضي لأن بعض الجنود قد ظنوه ثائراً دون ان يقتنعوا ببراهينه المعاكسة . فذهب عمر بنفسه اليهم لكنهم لم يستمعوا اليه ... ان رجال البوليس هم اشقياء .. ان عمر ولده سبع عشرة سنة ويعمل فرّاناً ولم يتعاط يوماً السياسة ... لم يصغ إليه احد . فذهب الى المختار الذي طرده قائلاً ان لا وقت له يضيعه مع شيوعي .لا يحبذ عمر الشيوعية بل يتهمونه بذلك لانهم يظنون انه سارق الحمار . .يقول انه اذا وضع ولده في السجن فسيصبح هو وجميع افراد عائلته ثواراً .

فوعده احد الجنود بإعادة ابنه واعيد اليه فعـــلاً في الاسبوع المنصرم .. والا لما استقبلنا اليوم ...

وما انتهى بن علي من الترجمة حتى وصلت امرأتان تحمـــلان صحافاً خشبية مليئة بالمآكل فجلسنا حول المائدة بعد ان انصرفت المرأتان بينما ظل الشبان الاربعة واقفين فقال باسون :

ـ قل لهم ان يتناولوا الطعام معنا .

لقد تبدل الجو طبعاً اذ انهم تقدموا ببساطة من المائـدة كي يشاركونا الطعام .

وهمس كوف بأذن باسون :

ـ ربما هو غير شيوعي ؟

وقال باسون لبن علي :

ـ اسأله ان كان راضياً عن الجنود .

فأجاب المترجم :

ـ يقول كلا .. ان الكيل قد طفح ونفد صبره ... لقـد بقي مرة ثلاثة ايام دون ان يتناول لقمة !

فاجاب كوف متذمراً :

ـ قل له اني بقيت خمسة عشر يوماً من غير طعام دون ان يصيبني اي مرض ... قل له ...

خلال هذه الاتصالات الانسانية التي تنجح حيناً وتفشل احياناً اخرى اصبح رجال العرب رجالاً ... وأصبحنا نحن رجالاً !

روبير لاكوست

احتسى جوليان واسبانيول القهوة وتصفحا جريدة الجزائر

دون اي اكتراث لأنهـا تصف الحوادث الرتيبة البارزة دون ذكر للمعضلة التي توصلا الى ايجاد حل لها .

عندما دخلت مع جيرونيمو ، حياني اسبانيول تحية الرضى، لأنه يجدني متفقاً تمام الاتفاق مع جيرونيمو ... ولا شك ان جيرونيمو هو افضل مساعد لي ، ثم قال :

– هل قابلت انت عمر سعيد ؟

– نعم ، انه شخص ذو اعتبار .

– لقد قيل لي ذلك .. فلو اثّرنا عليه لانتشرت فكرتنا في مقاطعته .

– ربما . ولكن اياكم ان تزجوا ابنه في السجن وتتركوه دون طعام بعد الآن !

فأجاب اسبانيول :

– لقد اعدنا اليه ابنه ... وعلى كل حال انها حوادث ماضية يلزم اليوم محوها ! هل اقتنع بالذهاب الى المقهى ؟

انخطتنا هي ارسال رجال الى مقهى الكعيبة يوم الاحد ليتحدثوا بصراحة مع « نواب » المقاطعة ويتعرفوا على شعورهم وسوف يرافقهم احد الوجهاء المعروفين ليدعمهم مما يشكل له طبعاً مجازفة خطرة اذا فشلت المباحثات .

●

لقد انتشرت فكرة الكومندو في نواحي الجزائر الى درجة ان السلطات الرسمية ارتابت في الامر وارسلت بعثة للاستطلاع عن كثب عن مرامي الكومندو الحقيقية .

في اثناء تجول البعثة التقيت بالسيد روبير لاكوست .

لقد اجتمع اسبانيول بلاكوست مدة طويلة عاد على اثرها شديد الرضى والارتياح قائلاً :

ـ انه متفق معنا تماماً بأن الحياة العسكرية مملة رتيبة ... انه يفكر مثلنا ولم اجهد نفسي ابداً في اقناعه.. انه يعلم كل شيء ويرى ان حل الكومندو هو الحل الاوحد وانه سيساعدنا ..!

اما انا فتملكني الاستغراب بشأن هذه المقابلة اذ ان روبير لاكوست هو بنظري ذو وجهين مختلفين :

انه اولاً النائب الاشتراكي القريب من الشعب الذي نبذ الخطب السياسية الفخمة الفارغة من المعاني الملموسة . وهو ايضاً الرجل الذي تحدثت عنه الصحف منذ مدة قصيرة فزادت ثقته بنفسه فاصبح عسكرياً من العسكريين بقدر ما كان يكره الاساليب العسكرية من قبل !

فايهما مبعوث الجمهورية الفرنسية ؟

لا هذا ولا ذاك .

اذ ان الوزير الذي تناول معنا الساندويش لم يعد ذلك السياسي العملي من مقاطعة دردون ، ولا قيصر السلم، بل هو رفيق لنا .

لقد قادنا الى زاوية من الخيمة وبادلنا رغبته في القضاء على الدوامة التي تحول جيشنا الى جيش مستعمر ... ولكن بأي وسيلة؟ كيف نتصل بالجزائريين بدلاً من ان نقضي عليهم ؟ وفي حديثه هنا شعرنا بالمسافة التي تفصله عن الشعب الجزائري الذي هو غريب عنه كالاسكيمو . ثم انصرف بعد ان وعدنا بمقابلته

مرة اخرى ليساعدنا قدر الامكان .

●

اتكأ جوليان على المقعد وقال :

ـ ان السلطة السياسية عاجزة عن القيام بأي عمل ، بل لا وجود لهذه السلطة . . . كل شخص يحمي مصالحه الخاصة آملاً ان الحوادث تحل بنفسها المعضلات . يقول الصحافيون مثلاً ان الجيش مستعد لإسقاط الحكومة . انه قول لا اساس له من الصحة ، اذ ان قواد الجيش لا يفكرون الا بمصالحهم الخاصة ولا يشغلون بالهم بالسلطة لحظة واحدة !

اننا مانزال نذكر قول احد القواد السديدي الرأي الذي قال : «انا لا اطرح على نفسي اليوم الا سؤالاً واحداً لا جواب عليه وهو اني اعرف جميع الشبكات السرية وغاياتها واسرارها ولكني لا استطيع ان افعل شيئاً .

فاذا تركت لها الحرية تابعت اعمالها بينما اضعنا وقتنا نحن في القضاء على شبكات اقل أهمية وفعالية منها .

واذا ألقيت القبض عليها اطلق بعدئذ سراحها إذ ليس لدي دليل قاطع ضدها فتخرج من السجن وقد زادت شهرتها وشجاعتها بفضل هذه التبرئة . ثم اذا جرت الانتخابات كانت في الطليعة !

واذا ألقيت القبض عليها وقضيت عليها وقعت مسؤولية ضخمة على عاتقنا . فلست اذاً مستعداً لاجراء هذا التدبير دون امر واضح من السلطات .

اننا نحترم بعض الفوضويين فينقلبون ضدنا ويطلقون الرصاص

على الاطفال والنساء كما حدث في الهند الصينية .

وفي الختام ماذا افعل ؟ لقد طلبت تعليمات من الحكومة عشر مرات – عشر مرات هل تسمعني – دون ان اتلقى اي جواب . انهم لا يريدون مجابهة الموقف » .

ثم جرب هذا القائد ان يقنعنا بضرورة سياسة موجهة عملية اياً كانت هذه السياسة ولكن شرط ان توجد . ثم رافقنا الى عدة مناطق ليبين لنا الحالة المؤسفة وقال :

– انهم يرغموننا على الدعاوة . اننا نقبل بها شرط ان تفيد سياستنا العامة . ولكن اي سياسة ؟ لقد اصبح جيشنا بوليساً من الدرجة الاولى مما يثير اشمئزازنا . صدقوني .. ستنتهي الحالة بصورة سيئة .

●

وصلت سيارتنا الى الجزائر عاصمة الحرب بل بالاحرى عاصمة فرنسا حيث يكتب التاريخ الفرنسي بكامله .

٢

بداية النهاية

مقتل بريك

لقد اتضح لنا منذ آخر مباحثاتنا مع القيادة العامة والحكومة ان فصائل الكومندو لن تحظى بمعونة رسمية من السلطات فأصبحت غاية الكومندو بنظرنا نهاية وهمنا إلا اننا تعرضنا فيما بعد لمعضلات اشد اهمية .

لقد نجحنا في كسب ثقة الشعب لكننا اغظنا الثوار بنجاحنا هذا فتأهبوا للمقاومة العنيفة باستعادة تجمّع الشعب واعادته الى صفوفهم . وتكررت المؤامرات من جديد دون ان نفقد عزمنا بل اثبتنا مراراً لرجالنا ان الاتصال الانساني بالشعب هو الوسيلة الوحيدة الفعالة في القتال ضده . ففي اثناء احدى الحملات اصيب ملازم اول وسرجان بجراح خطرة ، ماتا على اثرها . فاضمحل ذكر الملازم اما السرجان فهو بريك نفسه . فتأثر الجنود لمقتله رغم كره بعضهم له وهيامه بالعراك . اذ عرفوه واستمعوا الى

مفرداته اللاتينية من حين الى آخر ليوهمهم بعمق تفكـــيره ،
وادركوا تأثيره على ابنة صاحب معمـــل الرصاص الحسناء .
انه لرجل جذاب يترك مصرعه فراغاً اليماً .
لقد كرر لنا بريك مراراً :
— « ان فكرة الكومندو تجعل منا بالنسبة للثوار دجالين
لا اكثر ولا اقل .. فعندما نتقدم مثلاً منهم ونلاطفهم يشرعون
بتدبير شرك لنا يوقعوننا فيه ... انهم ينقضون علينا كلما قـل
حذرنا تجاههم ... صدقوني ايها الرفاق » .
وها هو بريك الآن مخترق الصدر بانتظار سيارة الاسعاف ،
يؤجج مشهده في نفوسنا من جديد نيران الحقد والبغضاء .
لقد ادرك اسبانيول في البدء مقومات الخطة التي ادت الى
مقتله فارتأى ان نبحث عن متطوعين جدد يتابعون حملة الكومندو
السلمية ، فقبل البعض منهم العرض للتخلص من ملل حياتهـــم
اليومية او لصداقتهم لهذا الضابط او ذاك ، وربما محبــة منهم
لهذا الشعب المسالم الذي بدأوا يشاركونه آلامه ويشعرون
بنفسهم قريبين منه . اما غامبر فتعهد بانجاح الخطة وتيسيرها .
وفي اليوم التالي لمقتل بريك قال سرجان فالو الذي اشترك
في فصيلة الكومندو :
— والآن ايها الرفاق علينا ان ننتقم لبريك ، فلا تأمرونا
بالعودة لتناول الطعام معهم .
فأجابه غامبر :
— ستعود بصفتك كومندو ، هل فهمت ؟

– لن أعود ابداً !

– ابداً ؟

– ابداً !

– ردد قولك !...

فردد فالو :

– لن اعود ابداً !

فانقض غامبر على فالو وطرحه ارضاً ثم تطلع حوله ليتأكد ان فكرة هجوم جماعي لم تساور احداً من الحضور .

لقد حصل غامبر على النتيجة المنتظرة ! لا بفضل قوته البدنية فحسب ، فكثير من الجنود اقوى بنية منه واصلب ، بل بفضل سلطته عليهم التي لا تنحصر في القوة البدنية .

***

أشارت الساعة الى السادسة تماماً عندما التقى جيرونيمو مع الكابتن جوف ، فقال هذا لجيرونيمو :

– سننتقم منهم ، يا جيرونيمو ، سننتقم منهم !

– طبعاً ، يا كابتن، ولكن متى ؟

– لا يهمك الامر ... فلن ينجوا منا ابداً ... ان مسعى الكومندو تدجيل لا نفع فيه . بل ان الكومندو يشجعون الثوار ضدنا ، اما نحن الفرنسيين الصالحين فلا نريد الا ان نحتمي من الاعداء ... فليت « جوجو » يهمل هذه اللعبة الطريفة ويعود الى رشده .. (جوجو هو تصغير لاسم لجوليان) .

يخشى الكابتن جوف نتائج خطـة الكومندو فسعى بكل امكانياته ليقتل معنوياتهم . اذ ان الاتصال بالشعب الجزائري يثير بنظره اولاً الريبة ثم الحذر فالعداوة والبغضاء . وعلى كل حال فإن مدّ يد التحية الى عربي هو حركة وقحة وذليلة بنظر جندي فرنسي شريف قادم الى الجزائر .

ان هذه التحية ان اثبتت شيئـــاً فهي اننا لم نحترم العرب الجزائريين فحقدوا علينا وثاروا. وتعني هذه التحية اننا نريد رغم الوضع الراهن ان نخلق جواً من الثقة في الجزائر بعيداً عن التعصب الاعمى الجزائري وعن الانانية الفرنسية. فعلى الجندي اذن القادم من فرنسا ان يكون حكماً بين هذين الفاصلين. وتعني هذه التحية ان الجزائريين اناس مثلنا يتمتعون بالحرية والحياة !

يظن بعضهم ان ثورة الجزائر ثورة مصطنعـة اثارتها المصالح الاجنبية وخاصة سياسة عبد الناصر – في الطليعة – والروس والتونسيون والمراكشيون ، حتى والانكليز والاميركان ! فاذا تبنيت الاعتقاد بأن الثورة الجزائرية منبثقة من اعداء فرنسا الاجانب لا من الجزائريين انفسهم فانت رجل مستقيم . اما اذا خلت ان الثورة منبثقـــة من الشعب وتستطيع اخمادها بفضل الاتصال الانساني بشتى انواعه فأنت خيالي بعيد عن الواقـــع .

والحقيقة هي في التعليل الاخير !

فالوسيلة الوحيدة لبقاء الفرنسيين في الجزائر هي القوة والقوة وحدها .. وكل وسيلة اخرى لا تصلح إلا لتغيير طبيعة الاستعمار الفرنسي في هذه البلاد . وهذا التعديل لا تحبذه الاكثرية .

ومن ثم وجب الاختيار .

فأما ان يتخذ الجنود هدفاً لهم الانتقال من وسيلة استعمارية الى وسيلة اخرى والوقوف موقف الحكم .

واما ان يكون شاغلهم الاوحد توطيد الاستعمار الفرنسي في حالتيه الاقتصادية والاجتماعية الحاضرتين . وهذا الحل فاشل لا محالة .

ان الاختيار في هذه الحالة سياسي .

فمنذ موقعة ٦ شباط المشهورة نصحت الحكومة الجيش باتخاذ موقف البوليس لأنه عاجز عن تنفيذ المهمة السياسية الاولى .

اما جوف فقد اتى الى الجزائر كي يوطد الاستعمار الفرنسي لاتباع خطة الكومندو التي تبوء بالفشل وتزيد كره الثوار لنا ونسبة الاعتداءات . لقد صدق جوف ونجح !

اختلاف في العقائد

لقد قضى اسبانيول معظم امسيته سهراً في تهدئة اعصابه . وحدد موعداً رسمياً لمقابلة القيادة العامة في الساعة التاسعة صباحاً دعا اليه الشخصيات البارزة الاربع في قرية (سيدي كاتب) وهم المختار ومعاونه فالسيد بيجار والسيد ماروني من كبار منتجي النبيذ . يعرفهم اسبانيول جيداً ولكنهم لم يجتمعوا مرة معاً . فسيغتنم اسبانيول هذه الفرصة ليطلع على شعورهم، الواحد تجاه الآخر .

وقد دعاني ايضاً مع جوليان دون ان يطلعنا على السبب ،

لاشك لأننا كفيلان بدعم فكرة الكومندو .

ليس اسبانيول رجلاً سياسياً حذقـــاً بل قرر مرة واحدة واخيرة ان الحذاقة هي في معاملة السياسيين الذين يعرضون بنا بأقسى العنف . وعقيدة اسبانيول هـــذه اصبحت طبيعة له سيان مع النساء او الوزراء دون ان يقتنع يوماً أنها لا تنجح الا في ظروف خاصة لأنه لا يذكر الا الاحيان التي ينجح فيها .

فقال دون ملاطفة :

ان ما سأقوله لكم قصير جداً ولن الح عليكم . فأني اعرف نوايا كم وانتقامـاتكم الشخصية وصلاتكم السرية .. وانا ايضـــاً لي صلاتي الشخصيـــة التي تكشف لي عن مؤامراتـكم ... انكم فاشلون هذه المرة .

لم يرتبك المدعوون بل بدت على محياهم سيماء الاصغاء اذ انهم يعرفون اساليب اسبانيول لئلا يقعوا في شراكه . ولكن مـــا يريبهم هو غاية اسبانيول التي جاؤوا لأجلها .

– لقد علمت انكم اصدرتم التعليمات بالتخلص من الكابتن جوليان ... الذي هو بينكم ، وان لديكم طرقاً خاصة لتأدية هذا العمل المنكر . فالاسلحة لا تستعمل فقط ضد الجزائريين ! ... فاصغوا اليّ جيداً ... لن احدثكم في السياسة لأني اؤمن بالجزائر الفرنسية لكنني لا أعتقد اننا نستطيع حمايتها بوسائلكم .. سيان عندي ان اقتنعتم ام لا ... سنخلص الجزائر بالرغم منكم ... ان ما أريـد قوله هو : اذا اصيب الكابتن جوليـان الذي تتهمونه بالشيوعية والذي أعتبره جندياً شريفاً ، اذا اصيب بأي اذى ...

وتوقف هنا اسبانيول عن الكلام وأشار الى كل من المدعوين.

انت – وأنت – وأنت – وأنت سأقضي عليكم بنفسي ...
وسألقي المسؤولية على عاتقكم.. على عاتق كل منكم.. هل فهمتم؟!
.. فاتخذوا التدابير لئلا يصاب بمكروه !

وخيم الصمت .

تطلع المختار الى اسبانيول وطأطأ بيجار ومساعده رأسيهما، اما السيد ماروني فاحتفظ بعزمه واتكأ على عصاه الطويلة مستخفاً. لقد شهد منذ موت والده عدداً عديداً من الرجال القادمين من فرنسا والمصممين على تحويل مجرى الامور في الجزائر بينما هم يجهلون الوضع الراهن جهلاً تاماً.. ثم انصرفوا بعد ذلك فاشلين دون ان يتركوا اي اثر لمرورهم . لقد تطلعوا الى الاحداث من خلال الصحف وأقوال الناس والمؤتمرات الرسمية فمزجوا الحقيقة بالواقع ولم يكن عندئذ في الجزائر ثوار عنيدون مثل اليوم .

فقال كومندان المقاطعات مستنكراً :

– ايها الكولونيل ، يبدو لي انك تحدثنا كما لو كنا مراقبين!

وقال ماروني :

– ارجوك ، يا بيجار ، لا تظن اننا سنقبل بالجدال مع شخص من امثاله .

وانصرف الاربعة .

لم ينبس جوليان بعد انصرافهم ببنت شفة بل اخذ يقيس الغرفة ذهابا وايابا وشرع اسبانيول ينظف بندقيته وقد تملكه الارتياح بعد هذه التصفية الضرورية .

فقال له جوليان :

– اعتقد انك لا تجهل،ايها الكولونيل ، ان ماروني وصديقه المختار هما اشد قوة منا بنحو عشر مرات !

– انك مخطيء ، يا صاح ، انك مخطيء ! انهما قويان ولكن ضمن وسائلهما فحسب . فاذا انصعنا لهما انقضا علينا والاحسن ان نضعهم حيـال الامر الواقع ... فسوف اعترف للجميع انهما وجميع مجنديهما يريدون القضاء على العرب جميعاً وعلى الفرنسيين الذين لا يساندونهم . وأقول ان إقرار السلم في الجزائر غير معقول قبل التخلص من امثـال هؤلاء الرجال ... فطالما مكثوا في هذه الاقطار ساد الثوار وملكوا... فنحن هنا اما للحفاظ على مصالح ماروني الخاصة واما لصالح الجزائر .

فأجابه جوليان :

– موافق ! اما الجواب فهو : نحن هنا لندافع عن مصالح ماروني .

– لا أحبذ هذا الرأي !

– اذن يمكنك ان تنصرف ، فوسائلهم أقوى منك ...انك لا تشك في ذلك على ما اظن ؟

– انت مخطيء ، يا جوليان ! ان وسائلهم كفيلة بطردنا من الجزائر ولكني اذا طردت صرخت في جميع انحاء فرنسا بالذي يحدث هنا فيستمع الي كثير من الناس الذين يهمهم الامر ..عندها اقول ان مشكلة اقرار السلم دعاية لا معنى لها الا للاصقي الاعلانات أما من يسعى لتحسين اوضـاع العرب وكسب ثقتهم فهو خائن

وشيوعي يطرد من الجزائر وينزوي في منزله ...

انها حقائق كفيلة بأن تحدث ضجة في باريس .

ظل جوليان يقيس الغرفة ثم توقف ليقول بصراحة لاسبانيول:

– اني اقدر سخاءك في الكلام ولكني لا اشاركك اوهامك... انك تعتقد انك تستطيع بالصراحة وحدها افشاء الاخطاء التي تحدث هنا وان تخدم بذلك المصلحة العامة . ولكن من يقتنع بأقوالك يا ترى ؟ .. لن يقتنع ماروني ولا الحكام الذين ألفوا سياسة العنف والكذب ... ولن تقتنع السلطات الرسمية ...

– لماذا انخرطت اذن في الكومندو ؟ انك اذن تضيع وقتك فيه !..

– دون شك ! اني افضل عدم التفكير في هذا الامر .ولكني اشعر بالواقع وألمس بيدي الاثنتين وبجسدي ما لم يرد احد مشاهدته رسمياً .. فعندما انام مساء في الغرفة المظلمة مع عمر او سلمى او منصور الذين اصبحوا أصدقاء لي أحدثهم كالبشر ... أشعر عندئذ بالسرور دون ان افكر لحظة بأني احوّل بعملي هذا مجرى الحرب في الجزائر ... ستقضي عليّ هذه الحرب بسبب تجربتي هذه ... وبانتظار النهاية ، فاني اصبحت انساناً !

يحب اسبانيول الاستماع الى جوليان ولكن الى حد ، فلا يبدو له التصرف الاخلاقي غذاء كافياً للنفس الانسانية بل هو يبحث عن العمل والنتائج الفعّالة . لقد اقتنع بأن خطته فاشلة ثم قال :

– لا تجهل يا صاح اني لم ادعُ ماروني واصحابه لاحدثهم عن

تاريخ فرنسا ، بل لأخلصك منهم خشيـــة ان يرسلوك يوماً الى العالم الآخر ... انهم يدبرون خطتهم ... هذا هو هدفنا اليوم، ثم نبحث في الامور الاخرى فيما بعد .

●

لقد اختار اسبانيول مجابهة اعدائـه الذين يريدون وضع العراقيل امام تجربة الكومندو .

لقد بدأوا خطتهم ضد الكومندو بغالان واسبانيول لأنهما قويّا العزيمة ويصعب اقناعهما ، وخاصة غالان. فدعوه الى الحفلات الرسمية وأسروا اليه الاسرار وعرضوا عليه الانضمام الى إحدى النقابات التي تعمل لتوطيد الحـكم الفرنسي في الجزائر . فتظاهر بعدم ادراك نواياهم وعاد الى منزله ذلك المساء خائر العزيمة . وفي اليوم التالي شاركنا مصاعبه .

اما اسبانيول فهو لا يخيف العظام لانهم يعتبرونه متلوّن الطبـع وضعيف الثبات . فابتدأت اذن الخطة بي وبجوليان .

فخلال سفره الى باريس دعي اسبانيول عنـــد الوزير الذي سلمه تقريرين بشأن س . ش .

وملخص الأمر اني الحقت بفرقتي شاباً نشيطاً نجـــح في اتصالاته مع العرب . وذات يوم جاءه الـكابتن جوف وطلب منه كواجب وطني ان يكتب تقريراً عن طريقة تعامل س . ش . مع العرب بغية اتفاقه فيما بعد مع حركة التحرير الوطنية .

فسر فرانشي بالمهمة التي وكل بهـــا ولا سيما انه سيشرع في تأليف رواية طريفة . ومما كتبه : « كنا مع بعض اعضاء حركة

التحرير الوطنية فعرض عليهم شريبر ان يسافروا الى باريس للاتفاق مع الاحزاب السياسية ، على نفقته الخاصة ... ثم تبودلت الانخاب لأجل مستقبل الجزائر ... فاستغربت هذا الموقف وقررت الافشاء به الى السلطات ... »

فطبعت ست نسخ من هذا التقرير بفضل الكابتن جوف اوصلت نسخة منها الى الوزير المختص الذي لم يشك بتاتاً في صحة مضمونها . فدعا اليه اسبانيول ليأمره بوضع حد لتجربة الكومندو وخياناتهم الوطنية!

اما اسبانيول الذي لم يعد يعتبر كثيراً الشخصيات البارزة فاوضح له الامر وبادله استغرابه في ان يقتنع وزير بامر كذا بينما كان عليه ان يرمي التقرير في سلة المهملات.

لكن اسبانيول خرج عن الموضوع وهو ان السلطات الرسمية تريد تغذية الحرب في الجزائر دون الاقتناع برأي الجنود انفسهم .

ثم عاد اسبانيول الى الجزائر وقد عزم في قرارة نفسه ان يقاتل بكل قواه ضد دوامة القوة والعنف ، وانخرط بكل ايمان في فرق الكومندو مؤمناً ان خطة الكومندو خطة فعالة انسانية والا لما اكترثت لها السلطات !

●

وذات صباح استلم اسبانيول بالبريد البطاقة الملونة المألوفة التي تعني اقالة الجندي من مهمته العسكرية واعتباره مشتبهاً به فلا توكل اليه المهمات الهامة . ان البطاقة هذه معنونة باسم

جوليان !

يعرف اسبانيول جوليان منذ اكثر من خمس عشرة سنة ويعتبره رجلاً مستقيماً شريفاً انسانياً . فاغتاظ من الامر واقتحم قيادة الامن العسكري ، ولكن مساعيه باءت بالفشل . واستلم رسالة شخصية تحذره من الاهتمام بالامر لئلا يثير حوله الشبهات لان الكابتن جوليان متطرف خطروبالاحرى عميل الشيوعيين حسبما اثبتته التقارير !

اما التهمة الموجهة ضد جوليان فهي ان احد المصانع قرر صرف بعض العمال فلم يختر من بينهم الا العرب . فدافع عنهم جوليان بحماس.فقررت النقابة الانتقام منجوليان بارسال تقرير يتهمه بالشيوعية . ومن ثم وصلته البطاقة الملونة المقتضبة .

●

خشي اسبانيول على نفسه لا خوفاً من الفشل او الاتهام بل ان يفقد ايمانه وهدفه . فلم يبق له الا جوليان معيناً .

التذير

في الوقت نفسه الذيشرعنا فيه بالتنقل في انحاء الجزائر لبث فكرة الكومندو بدأت فرقة اخرى اعمالها بغية الاتصال بالشعب الجزائري بواسطة العمل المشترك في الزراعة والتعمير والري والمساعدة الصحية ..

ان بعض سكان القرى الجزائرية هم في حالة يرثى لها،واغلبهم مصابون بمرض في العيون وغيرهم صلع تماماً. .فقرر غالان اخراج

العرب الاصحاء من الخيم وتسليمهم عملاً يعيشون منه. فلا شك ان هـــذه المهمة اصعب من مهمة الكومندو واصعب ولا شك من تقتيل الثوار بالجملة ودون تبصر ، اذ يتوجب فيها ارادة صامدة وايمان بمستقبل افضل. ولا سيما ان الثوار لا يريدون توطيد جو من التفاهم بين العرب والجنود الفرنسيين بل يضعون العراقيل تجاهنا. فما زلنا صامدين والكابتن غالان يشجعنا في مهمتنا بفضل اندفاعه الشخصي .

فعندما جاءه اسبانيول سأله :

– هل الوضع حسن يا اسبانيول ؟

– سيىء جداً، ايها الكولونيل، اننا بحاجـة اليك.. فنحن كالجوزة بين شقي الكماشة ..

فأجابه غالان :

– اذا كنتم هذه الجوزة ، فماذا انا اذن ؟ اقرأ التقرير الذي كتبته للقيادة .

وسلمني التقرير .

●

الموضوع : نتائج الحملة في ولدسمار :

لي الشرف بان اؤكد لكم واوضح المكالمة الشفهية التي جرت هذا الصباح .

لقد طلب من الملازم رينيه الاشتراك في حملة حربية في ولدسمار اذا اقتضى الامر . لكنـــه رفض شن حملة مخالفة للخطة السلمية التي نتبعها فأمر جنوده بعدم اطلاق

النار دون تبصر على العرب وخاصة على السكان الذين يعملون تحت اشرافنا في الحقول .

ويوم الاثنين شهدنا فعلاً فصائل عسكرية على اعالي الجبل . ولكن بعد الظهر جاء عربي من (جبابرة) الى الملازم رينيه واعلن له مقتل طفلين واسر نحو عشرة عرب .

فتوجه الملازم نحو (جبابره) و كشف عن هوية الجثتين. اما والداهما فقد ضربا واحتل مسكنهما وسرق لهما ١٠٠,٠٠٠ فرنك كان يحملها الابن معه .

وعند عودته اعلن له ايضاً مقتل ثمانية عرب مرميين في احدى الحفر . فعاد الى المكان وتعرف بنفسه على هوية الجثث : انهم عمال يشتغلون في احدى حقولنا معروفون في جميع انحاء المقاطعة مما زاد استياء الشعب. اما الذين حصلوا على بطاقات هوية من سلطاتنا الرسمية التي تؤهل لهم التنقل في الشوارع دون خطر ، فقد اخذت منهم هذه البطاقات او مزقت امام اصحابها !

لا ضرورة بأن الفت نظر القيادة الى النتائج السيئة التي تؤدي اليها هذه الاعمال ازاء خطتنا السلمية . هذا التقرير تابع لما سبقه . ا . س . ب

٨٢ . ٧١٨

الامضاء :

الكولونيل غالان

●

ثم قال لنا غالان :

– لا شك انهم سيقضون علينا.. لكني سأناضل قدر المستطاع وادوّن حتى النهاية مشاهداتي لأضعهم حيال مسؤولياتهم. هذا هو املي الوحيد .

– اما زلت تأمل ؟

– هنا ؟ كلا . انهم لا يرون .. فأهمية التقارير انها تصل الى باريس دون ان يهتم لها احد ولكن ربما طرح بعضهم الاسئلة ... وعلى كل حال لا استطيع ان اعمل اكثر من ذلك . فلست هذه المرة رجل سياسة . بل جندي مهمته تسجيل الاحداث ونقلها الى السلطات العليا.. اذا فشلت مهمة الكومندو يكون الجيش نفسه قد فشل !

لقد تأثرنا بقول غالان الصريح والجريء ، انه تصريح رجل يدرك مسؤوليته ولايتهرب منها .

وعادت الفرق بالتوالي من اعمالها وتفرقت لتأخذ قسطها من الراحـــة . اما اسبانيول فانتهى من قراءة التقرير ثم نظر الى غالان قائلاً :

– ماذا يفعلون يا ترى عند استلام هذه الورقة ؟

– كعادتهم ! يقرأون التقرير ثم يشرعون بالاستقصاء ثم يأمرون ببحث ثالث للتأكد من صحة هذا الاستقصاء ... الخ . انهـــم يعتبرون الاحداث التي نسجلها في التقارير عرضية رغم انها تتكرر كل يوم.. ! أما الشواذ فنحن الذين نعمل لاقرار السلام في الجزائر !

فتدخل جوليان في الحديث قائلاً :

– ايها الكولونيل . اننا نناقض انفسنا هنا،فبينما نتبع خطة اقرار السلم يتبع القسم الآخر وسيلة العنف ... وبين السيدين لاكوست وماروني ... فالسيد ماروني رابح سلفاً .

فأجاب غالان :

– نعم ... ان اقرار السلم في الجزائر حيال هذه الاوضاع لهو وهم مستحيل التحقيق . ان الحقيقة الراهنـــة الدائمة هي الدوامة والعنف !

فقال جوليان :

– ان هـــذا الوضـع هو نتيجة تضعضع السياسة الفرنسية لا ارادة وزير فردية .

ـ ربما ! ربما ان الحياة الوطنية هي على وشك التحول ... لقد تملكني هذا الشعور سنة ١٩٤٠ ... اما ما اشعر بـه اليوم فيختلف قليلاً ـ يا جوليان ـ فكأن انذار الحرب الذي وجـه الى فرنسا في ذلك اليوم هو على وشك ان يتحقق من جديد بعد مرور عشرين سنة :

الفرنسيّون فيما بينهم

١

صراحة مؤلمة

مارتان

جاء الينا مرة وقال :

ـ لقد فشلت ! لقد جمعت امس جميع معاونيّ وقلت لهم ان نجاح خطتنا يتعلق بهم. فاذا كرسوا انفسهم لهـــا نجحت وان لم يكترثوا باءت بالفشل ولم تترك الا الفوضى والبلبلة . والحـــال ان جنودنا قد فقدوا معنوياتهم وعزيمتهم رغم انهم رجال اعمال اشتغل بعضهم في التدريس وادار غيرهم المصانع !

لقد دعيتهم امس الى العشاء واعطيتهم بعض النصائح بشأن التعامل مع الجزائريين.. ثم طلبت منهم ان يطرحوا عـلي بعض الاسئلة ففعلوا ودام الجدال حتى الساعة الثانية صباحاً .. ففشلت رغم ذلك اذ تركني الجنود دون أن يقتنعوا بأي فقرة من اقوالي كأنهم محصنون بفكرتهم ولا يستطيعون التخلص منهـا ، بعضهم بسبب انانيته والبعض الآخر بسبب رغبة ثابتة في عدم الاقتناع،

والجميع بسبب عدم الاكتراث ..

وما ان اتم حديثه حتى وصل جندي بسلاحه الكامل وهو شديد الاعياء فسأله مارتان :

ـ هل ذهبت بمفردك يا بيكو ؟

فجمع الجندي قوته ليقف في وضع التأهب واجاب بصوت خافت مقتضب يعبر عن وحدة الرجال ويأسهم في عالم مجرد من الحقيقة :

ـ لا أحد، ايها الملازم.. طلبت بعض المتطوعين .. لا أحد! فأعدت شرحي للحالة حسب تعليماتــــك ولكن .. لا احد . فذهبت عندئذ بمفردي معتقداً انهم سيخجلون .

ثم انصرف . فقال لنا مارتان مبتسماً :

ـ انه نجاحي الوحيد ..

وطلب مارتان من القيادة بعد ان تركنا الحرية له بالاتصال برؤساء الثوار المحليين . نحن بانتظار نتائج هذا المسعى ..

* * *

وضع مارتان الزنار حول خاصرته وقطع قطعة من الخــبز قائلاً :

ـ لقد تيقنت ان لا منفذ لنا من هذه الدوامة ... ولا منفذ لهم ايضاً ... استفسرت عن هوية قائد الثوار في مقاطعتنــا . اسمه رمضان . قلت لنفسي ان اساليب رجاله لا توصل الى النتيجة اذ اننا سنظل اقوى منه ونقهر الثوار ونحن في صفوفنا الفرنسية . ولِمَ لا ؟

وهكذا بينما اعتبرنا انفسنا جريئين في اتصالاتنا مع الجزائريين تعدى مارتان هذا الشوط واجرى مباحثات مع جبهة التحرير الوطني . فقدرنا موقفه وقابلناه بالاعجاب . لكنه قال لنا :

– لم تؤد مباحثاتنا الى نتيجة . فبينما استلمت انا رسالة من فرنسا تنذر بعدم اجراء مثل هذه المباحثات ارسل لي رمضان رسالة يقول فيها ان المباحثات بيننـا اصبحت مستحيلة إلا على الصعيد الرسمي . فسوف نشرع اذن بحملاتنا ويشرع رمضان بمجازره .

– واي نوع من الرجال هو رمضان ؟

– رجل غريب الاطوار . لقد قـال لي أن آتي مجرداً من السلاح ففعلت لئـلا اثير ريبته . وما ان وصلت حتى انتفض رجلان من بين الاعشاب احدهما رمضان نفسه بكامل سلاحه اذ انه لم يظن ابداً اني سآتي اليه مجرداً من السلاح . ثم شرعنـا في الحديث باللغة الفرنسية التي يحسنها رمضان . فقالى لي انه أتم دروسه في جامعة الجزائر .. ومما اثار انتباهي هو لياقته ..

لم يبق لي الا بضع دقائق لأقضيها مع مارتان قبل موعدي في القرية فسألته قبل ان انصرف :

– وكيف حال فرقتك المؤلفة من الانصار ؟

فأشار إلى مارتان بيده اشارة مميزة كأنه يريد أن يقول : «غير مجدية» .

– لقد باشروا في العمل .. لا بأس بهم .. وخـاصة انهم سيقبضون اجرتهم في آخر الشهر .. مما يحثهم على العمل !

لقد اشترك مارتان في عدة حملات عسكرية ليختبر نفسية الجنود ويتأكد من ضرورة العمل الموجه الذي يعطي معنى للجهود الانسانية .

بقي علي ان اكتشف بنفسي مصير هذه الحرب .

مؤامرة فرنسية

كان موعدنا عند حلاق القرية رغم ان محلات الحلاقة في القرى الصغيرة هي الاماكن المفضلة لتنفيذ المؤامرات فنصرف عنها الجنود . واذا ذهبنا مرة الى هذه المحلات يقف الحارس امام الباب . اما الحلاق فهو يفضل رغم لطفه الزائد عدم زيارة الجنود لمحله لأنهم عرضة للاعتداءات .

ان الطريق الموازية للمحل ضيقة مظلمة . وتجاه المحل مقهى عربي .

لقد ارتعش اذن الحلاق عندما فتح رجل الباب بعنف ودخل محنيّ الرأس .. لم يكن ثائراً بل جندياً سأذكر طويلاً تصرفه . وعندما رأى الحلاق زيه اطمأن باله .

فتقدم مني الرجل وحدق بي بصورة غريبة عدة ثوان ثم قال :

– لقد قيل لي انك سرفن شريبر ... جئت لاقتلك !

وما زال يحدق بي بامعان كأنه راضٍ عن اكتشافه . فحدقت فيه بامعان : لم أرَ من قبل هذا الوجه بين جنودي . لا ريب انه حديث العهد بالفرقة .

ولكن ان كان الوجه غريباً عني فقدومه واعترافه كانا في الحسبان !

. . .

بعد الاستكشافات التي قام بها اسبانيول ومباحثاتنا مع بعض الزعماء توصلنا الىمعرفة الشبكة التي تسمى بدافع الوطنية للقضاء على بعض الشخصيات ، بينها الكابتن جوليان « المتطرف الخطر ».وانا رغم ان هذه الابحاث كانت صعبة للغاية نظراً للتنظيم الدقيق الذي يتمتع به هذا النوع من الشبكات المرتبطة غالباً بالسلطات الرسمية والتي تكتشف الاسرار بشتى الوسائل .

لذا لم استغرب حضور هذا الشاب وان تملكني الاضطراب .

لقد ظل جامداً في مكانهوهو يحدق بي ..

ولكن طريقته في النظر الي جعلتني اظن انه لن يقوى على الاساءة بعد بضع دقائق . اما اذا فاتت الفرصة فقد ساء موقفي واستعاد الرجل وعيه وذكره للغاية التي ارسل لاجلها . فعلي اذن ان اغتنم فرصة ارتباكه لتجريده من السلاح . ولكن بأي وسيلة ؛ الوسيلة سهلة . ان سيارة الجيب بانتظاري خارجاً. فطلبت من السائق بندقيته واعطيتها للرجل . ثم اصعدته الى السيارة مسلحاً واجلسته خلفي دون ان الفت نظري اليه طوال المسير . ولكني كنت افكر بجزع بحادث آخر ذات ليلة عندما صوب علي احد الوطنيين الشبان بندقيته ..!

ولم أدر رأسي الا عند وصولنا . فرأيت الرجل منزوياً في الزاوية وقد تملكته الميوعة والاعياء بينما سقطت البندقية من يده

على ارض السيارة. فتذكرت مقارنة غامبر ذات يوم عندما قال: « ان الشاب الذي لم يطلق الرصاص في الحال لن يطلقه بعد .. يحدث الامر مع المرأة بعض الاحيان» .

يتوجب علي ان اغتنم الفرصـــة التي سمحت لي باكتشاف اصغر المنفذين للمؤامرة كي اتوصل الى محرضيه . فاقتدت الشاب الى مكتب الكومندان هنري ، وعرضت لهـذا الحادث . اما الشاب فقدم نفسه متأهباً :

– كابورال جوليبت ، كومندان .

كان هنري جالساً امام مكتبه الحديدي بقامته الطويلة وعلى محياه سيماء الازدراء . فتطلع الى القاتل وقال له بصوت بارد :

– ماذا تفعل بزيـك هذا ؟.. كل من عرفتهم في هذا الزي كانوا جنوداً ! لا حق لـك بأن تشينهم بارتدائك ثياباً مثلهم .. لسوف تترك هذا الزي – هل فهمت ؟

فامتقع وجه جوليبت وطأطأ رأسه لينظر الى هذا الزي الذي تشرف به عدة ابطـال في حروب الهند الصينية وربما اليوم في الجزائر . ونظر جوليبت ملياً الى هنري دون ان ينبس بكلمة فردد له هنري:

– هل فهمت .. نعم ام لا ؟

فتكلم الرجل بصوت خافت وهو يرتجف :

– ايها الكومندان ، هذا الزي هو زيي .. لقد حاربت في (دان بيان فو) ..

فانتفض هنري من مكانه احمر الوجه كأن سوطاً قد صفعه

وتذكر سانسير ووالده القائد وتاريخ فرنسا وشرف الجندية وقال :

– انك تكذب !

وتابع بعد أن ملك غيظه وهو ما يزال واقفاً :

– لم تحارب في دان بيان فو !

فامتقع بدوره وجه جوليت وحدق بهنري ملياً وهو يرتجف اذ تلوثت سمعته واضمحل كبرياؤه ففقد ما يبرر كيانه وصفته الانسانية وقال :

– ايها الكومندان .. قل لي ما تريد بشأن وجودي في الجزائر .. قل لي اني رجل قذر فاشل .. عاقبني اذا اردت ولكن لا تقل لي « هذا » ولا تمس هذا الشرف . فلا حق لك .. لقد حاربت في دان بيان فو ولا احد يستطيع ان ينكر علي ذلك .

وتابع بصوت خافت :

– لقد تطوعت للقضاء على « ايزابيل » صباح ٢٩

لقد اصابت هذه الكلمة هنري في اعماقه اذ أنها تذكره بأكثر من مجمل للحوادث بل بطبيعة الشجاعة التي تشكل ميزة الجنود ومبرر انخراطهم في الجيش . فاذا فقدت البشرية امثال هؤلاء الرجال فماذا يتبقى من الجيش ؟

فقال له :

– اسمع !اذا صدقت وكنت مشتركاً معنا في القتال في دان بيان فو فقد وجب عليك ان تموت لئلا تعير رفاقك وتمس شرفهم .. هل سمعت ؟

فتنفس جوليت وأجاب رئيسه كانسان الى انسان :

ـ هل تفكر فيما تقول ؟

ثم صرخ متألماً :

ـ هذا غير معقول !

فأجابه هنري :

ـ نعم ، انيافكر فيما اقول.. ولم يبق لي كلام معك. انصرف، من هنا ولا أريد ان اراك مرة ثانية .

فخرج جوليان ثم وجدته فيمكتب باسون وقد خر علىالمقعد دون ان ينبس بكلمة .

لقد استمع باسون الى الحديث الذي دار بين جوليت وهنري وبحث في الملفات عن اسم جوليت وتعريفه فقد حاز جوليت على ثلاثة اوسمة والبطولة التييدعيها حقيقية. امـا هنري ففضل ان لا يستمع اليه والا يطرح عليه اسئلة لحمله على الاعتراف، ولكن بعد مباحثاتنا مع جوليت تيقنا انبعض الشخصيات شكلوا شبكة غايتها العمل على توطيد الحكمالفرنسي في الجزائر فاختاروا بين اعضائها الابطال وزودوهم بالحماسة وجددوا فيهم روح التضحية والقيم . فبعضهم يتظاهرون في باريس والبعض الآخر ينفذون الخطط الاشد خطورة .

* * *

تركت جوليت ورفيقه متأثرين من صراحتها . اما الأب باسون فكان خجلاً لهؤلاء الشبان وذهب ليحدثهم ريثما يعيد إليهم عزيمتهم وايمانهم بالقيم بعد ان اوشكوا على عدم

الاكتراث بها مما يؤدي الى هلاك جيش افريقيا ... وربما الدولة الفرنسية .

صلب المعضلة

قصدت مكتب السيد بيار لومرشان وعند وصولي تقدم مني شاب وسألني :

– هل انت قادم لزيارة السيد لومارشان ؟

فأجبته :

– نعم ؟ ماذا تريد ؟

– انا روبير دانو ، صديق السيد لومرشان ، وقد ارسلني لارافقك اليه .

وقدم لي ورقة مذيلة بامضاء السيد لومرشان : « يرافقك هذا الصديق الى المكان الذي سنتحدث فيه بأمان فاتبعه » فاستغربت هذه الاحتياطات ولكني تبعت السيد دانو الذي طلب مني ان اترك سيارة الجيب وان ارافقه على الاقدام. وسألت السيد دانو :

– لماذا يتخذ صاحبك كل هذه الاحتياطات ؟ فهل وقع في ورطة ؟

– سيشرح لك الامر بنفسه ..

كان بيار لومرشان جالساً امام مكتبه وهو يكتب فوقف لتحيتنا . وهو احد الفرنسيين القاطنين في الجزائر، ولم يشترك في المنظمات التي تضم غيره من الفرنسيين للحفاظ على مصالحهم بالوسائل التي يعتبرونها صالحة .

انه مستقل الطبع لكني اجهل ان كان اليوم يعتزل السياسة لغاية معينة .

●

اننا معاً الآن – نحن الثلاثة – بعد ان انصرف الخادم. فقال لومرشان :

– اني آسف من عدم وجود اسبانيول بيننا ولكني اتكل عليك لطلب معونة . لقد قبض على شقيقتي منذ بداية الاسبوع ولم تصلني بعد معلومات بشأنها فخابرت الوزير المقيم فأجاب ان لا علم له بالامر ثم اتصلت بصاحب لي في القيادة العامة فقال ان المشكلة هي من اختصاص البوليس ثم اجابني البوليس ان المشكلة هي من اختصاص الجيش ... ومازلت على هذا المنوال . كل ما اعلم ان ثلاثة رجال مقنعين قد خطفوها وهي خارجة من عملها ولم تعد بعد ... فأريد ان اتصل باسبانيول لعله يستطيع الاتصال مباشرة بمن يعنيهم الامر فيكشفون عن مقرها .

تكلم لومرشان دون تأثر ظاهر وباقتضاب كأنه يسرد الحوادث كما جرت فعلاً فسألته :

– هل هي موقوفة ... ولماذا ؟

فنظر الي لومرشان كأن لا مغزى لسؤالي قائلاً :

– اعتذر ياسيدي لأني انشغلت بمشاكلي الخاصة ونسيت انكما – انت واسبانيول – في جهل لدوري هنا ؟

لقد اكد لي الكولونيل اني استطيع مشورتكما اثناء غيابه اذا اقتضى الامر . فسأوقفكما اذن على بعض اسراري لعلكما

تفهمان الامر : اني عضو ندوة سرية تدعى «الندوة الفرنسية الجزائرية». وهي تضم في بعض المدن بعض الرؤساء، ليست غايتنا ثورية بل ان ندعم اواصر الصداقة مع اصحابنا الجزائريين الذين عرفناهم قبل الحوادث الاخيرة ... هذه غايتنا ... هدف متواضع قد يوصلنا الى نتيجة ناجعة وبعض الاحيان الى التورط مع السلطات !

لا ضرورة ان اوضح لك اننا لا نهدف فقط الى الاتصال بالعرب المنتمين الى عقيدتنا . فاذا انحصرت مهمتنا في الاتصال بالباشوات والاسياد الذين يقبضون في نهاية الشهر من القيادة العامة لم يبق مبرر لوجودنا .

اما شقيقتي فقد تعدت هذا الشوط وانخرطت في « حركة الشبيبة الكاثوليكية» التي يديرها السيد دانو. وتدعو الصحف هذه الحركة «حركة المسيحيين التقدميين» وقد وضع اعضاؤها انفسهم تحت تصرف الرهبان والمرسلين الى الجزائر كي يعاونوهم مهما اقتضت الحاجة . انه لعمل متواضع .. لم تعطني شقيقتي تفاصيل بشأنه ولكني اظن ان توقيفها متعلق بنشاطها هذا .. هذا ما اريد أن اقوله لكما .

وقرع الباب ثلاث مرات متتالية فجمد لومرشان في مكانه وأمسك بقلمه قبل ان يأمر الطارق بالدخول . فدخل رجل مسن قدم نفسه . اسمه فينو . وهو موظف في القيادة العامة . فجلس على المقعد ببطء ورفع نظره قائلاً للومرشان :

– أما زلت تجازف بحياتك ؟

– اسمع ، يا صاح ، ستحدث مشاكل عديدة فيا بعد.. ولكني متأكد ان لا احد منكم سيبقى في الجزائر .. اما انا فسأبقى فيها .

– هل قابلت القائد ؟

– نعم ... ليتك ترى كم يختلف الرجال هنا وفي باريس . فإن جنودنا يمثلون في باريس التاريخ الفرنسي والشرف الفرنسي والجيش!..وعندما يقطنون في الجزائر تخور عزيمتهم ويتهافتون لقد قال لي: « اني في مأزق لا اعرف كيف يمكنني الخروج منه »

– اني استغرب مقابلته لك اذ انه يعلن دائماً انك عميل جبهة التحرير الوطني .

– نعم ... لاني اتعامل مع الجزائريين! ولكن التعامل مع الجزائريين اليوم اصبح بسبب بعض المسؤولين شبه مستحيل.. ويا له من عمل !

ان الاشخاص امثالي الذين يريدون البقاء في الجزائر والموت فيها كي يوطدوا صلات الصداقة بين الشعبين الفرنسي والجزائري عليهم ان يتصلوا طبعاً بجبهة التحرير الوطني .. لذا اعرض نفسي للتوقيف دون سابق انذار.في السنة الماضية كانوا يقبضون على الثوار وبالأمس قبضوا على اي عربي يشتبهون به اما اليوم فيقبضون على شقيقتي فرنسواز « والتقدميين » وغداً سيقبضون عليّ وعلى رفاقي الذين لم يرتكبوا اي جرم .. ارجوك ان تصدقني .

ليس لدينا ملجأ كأسياد سوى الجزائر .. بل هنا بلادنا ولا

سبيل لنا للاختيار . ان مستقبلنا نحن متعلق بالاستاذ بن علي او المحامي حسين او الدكتور فارس لا بالملازم الذي يقوم بجولات كشفية في الشوارع المجاورة ..

وانتبه الى ملازمه فقال :

– اعتذر ، لم اعنيك خاصة .. انك تفهم ما اريد .

فتكلم عندئذ دانو الذي لم يشترك بعد في الحديث :

– سيدي ، لقد قبض حتى الآن على ثلاثة من رفاقي عدا فرانسواز. فاختاروا جميعاً مجازفة التوقيف بدلاً من ان يروا كل الجزائر منضمة الى سياسة العنف .

فقاطعه فينو :

– شهداء جدد ! اني احترم موقفهم. لكن اسمح لي ان اقول ان موقفهم هذا لا يخدم مصالح بلادهم بل مصلحة الجزائر ! نعم اعرف ما ستقوله لي : فرنسا الحقيقية ليست فرنسا العنف ، ولكن هذا الجواب لا يغير طبيعة المعضلة . كل ما يساند الثوار هو خطوة نحو جلائنا من هذه البلاد. ولو استطاع بعض الفرنسيين البقاء فيها وبصفة فردية فحسب ..

اني احترم رفاقك ولا اعتبرهم شهداء على سبيل السخرية. ارجوك ان تنظر الى الامر الواقع : اتى الجنود الى الجزائر كي يحافظوا على كيان وطنهم وليس لاتباع النظريات والا اعتبرهم الوطن اعداء له .

فأجابه دانو :

– انك رجل حسن النية ولكني سأجيبك على هذا

الموضوع الذي قد عولج مرات عديدة قبلنا ولا امل لنا باكتشاف جديد فيه ... اننا سنبقى على هذه الحال اعداء الوطن . ولكن اسمح لي ان اعترف لك بحادث واقعي لعلك تتأمل فيه .. عندما دخلت فرقة المظلات منزل صاحبي السيد فلوري للقبض عليه ، وقعت انظار الجنود على زوجته . فطرح عليها رئيس الفرقة هذا السؤال : « هل انت كاثوليكية ؟ » قالت لي المرأة بعدئذ انها ترددت قبل ان تجيب عليه !

أنا لا اعني اننا في عهد التوقيف العقائدي بل ان المأساة الجزائرية هي بالاحرى مأساة فرنسية ... ليست الفاشية الا في اتباع سياسة العنف والدعاوة التي تصبح عادة مألوفة ... ان ما يحدث الآن في الجزائر لم يكن يوماً في الحسبان ! فلا غرو ان هذه الوسائل الفاشية سوف تعم في داخل بلادنا اذ ان النظام لا يوطد بالعنف والكذب كما هي الحال اليوم . سوف تنتصر احدى هاتين الوسيلتين على الاخرى بدون شك : العنف او الحرية . لهذا السبب اناضل ضدكم لأن القتال اليوم ليس ضد الجزائريين او بجانبهم بل بين الذين يريدون لفرنسا مستقبلاً فاشياً والذين يجاهدون ضد هذا المستقبل !

– هل تقبل اذن باسم اتجاهك السياسي ان نفقد الجزائر !

–بالعكس ، اذا رفضنا الانحطاط الفرنسي كسبنا معركة الجزائر .

فرد السيد فينو على قول دانو قائلا :

– لست متأكداً من صراحتك عندما تجيب بهذه الصورة . انك توجز المصاعب عمداً ... اني اقدر موقفك ولكني آمل ان تحترمه انت . فاذا عدلنا عن استخدام القوة ضد القوة عدلنا في

الوقت ذاته عن سلطة فرنسا في الجزائر ... انها لحقيقة لا جدال فيها . فهل انت مستعد ان تتحمل نتائج عدولك عن وسائل العنف التي تؤدي الى اعطاء الاستقلال للجزائر ؟

اني اعتقد خلافاً لرأيك ان فقدان الجزائر كفيل بإذلال الفرنسيين واثارة يأسهم وحنقهم على السلطة فيفتحون عندئذ الباب على مصراعيه لما تسميه الفاشية ويجدون فيها كبرياءهم الذليل . . فاصغ الي يا سيدي : لاينقذ الانسان الوطني نفسه بخسارته الحروب ، فالفشل ونتائجه مخزية للغاية .

فوقف دانو واتجه نحو النافذة مشيراً الى لومرشان :

– اطفىء النور !

فغرقت الغرفة في الظلام الدامس حتى اننا لم تعد نتبين الا اطياف الحاضرين . وبعد ان رأينا من النافذة فرقة عسكرية مارة قبل اطفاء الانوار صممنا على الانصراف . فسألني لومرشان :

– هل يذكرك الامر بشيء ؟

فاومأت له برأسي متأثراً ، لكنه لم ينتظر جوابي بل قال :

– انك مخطىء في تذكرك . . اننا في وضع مختلف هنا . فربما يصح ذلك بالنسبة للعرب الذين يشعرون بوضع «الاحتلال» اما نحن فإننا نختلف فيما بيننا : انه لوضع مختلف .

وقال لومرشان وهو يجمع اوراقه على الطاولة قبل ان ينصرف :

– اذا فشلت مساعينا السلمية تأهب الشعب للحرب الاهلية .

٢

حرية الانسان

دوام فرنسا

واستمر القتال بصورة رتيبة تتبعه الحملات العسكرية والاعتداءات والدمار. وعاد عدد من الشبان الى وحداتهم فلم يبق لنا متسع من الوقت لتنفيذ خطة الكومندو اذ اصبح القتال مستمراً بصورة شبه دائمة.

وذات مساء عند عودتي من احدى المهمات الشاقة لأنال قسطاً من الراحة بمعزل عن ضجيج الطائرات واعياء المسير، وصلت إلي نبرات حديث يدور بين جوليان وهنري اخذت اصغي اليه وادون بعض ملاحظاتي على الدفتر الخاص خشية ان انساها. انها ملاحظات بسيطة ولكنها كفيلة بتوضيح بعض الامور.

●

عند عودتي في الاسبوع الماضي من المرفأ، حيث ودعت الجنود العائدين الى فرنسا بعد ان اتموا خدمتهم العسكرية،

التقيت بأحد اصحابي الذي كان يعمل في القيادة العامة. فأسر الي امراً استغربتـه بادىء ذي بدء . قال لي انه علم من مصـادر موثوقة ان الغرفة العسكرية تريد « الاتصال » بي بصـورة سرية قبل عودتي الى فرنسا لعلها تحرضني على الصمت بعد الاستقالة من العسكرية والا اعلنت بشأني الفضائح.

فلم اقتنع بالقول رغم إلحاحه ورغم علمي بأن القيادة العامة والحكومة تدرسان امر عودة بعض الجنود الى اوطانهم بعد ان تتأكدا من موقفهم حيال الحركة السلمية في الجزائر وبعد أن تعلنا لهم التدبير الذي اتخذتاه بهذا الشأن. ولكن هذه الاشياء لا تحـدث لك بل تسمع الكثير بشأنها . فأن ترى امامك رجـلاً بلحم وعظم يقول لك كما في بعض الافلام : « امـا ان تنصرف او اقذفك جانباً » فهذا الامر لايحدث في الحياة اليومية . واي تهمة يمكن ان توجه ضـدي ؟ التقرير الذي وضعه فرانشي بشأن اتصالاتي مع جبهة التحرير الوطني ؟ او امر آخر كفيل بارغامي على الصمت ؟ فانتظرت بفارغ الصبر ان يتم هذا الاتصال ·

ودعيت فعلاً بعد عدة ايام بواسطة احد الرجال الذي كلمني هاتفياً بألطف لهجة ممكنة قائلا : «ألا يمكننا تناول الطعام معاً فيما بيننا ، وخارج العمل ؟ » فألححت عليـه كي نلتقي في مكتبه فقبل مرغماً : « في مكتب رقم كذا في القيادة العامة مع الكومندان ب من غرفة الوزير المقيم الحربية » .

دخلت المكتب حيث كان بانتظـاري الكومندان ب بزيه المدني وكومندان ثانٍ بزيه العسكري من الغرفة الحربية وكومندان

ثالث ، أصغر منهما سناً من مراسلي الصحف. فقدم لي الكومندان ب مقعداً بينما تظاهر الآخران بعـدم الاكتراث وشرعـا في ترتيب الاوراق المبعثرة على المكتب . فحدثني ب بكـل لطف وهو يدخن غليونه وعلى وجهه سيماء الارتياح . فقال لي :

– اني مرتبك يا سيدي (هل اصبحتُ مدنياً ..؟) بسبب مجيئك الى هذا المكتب لأني اردت ان نتحدث معاً خارج نطاق اعمالنا ..

يمكنني القول ان ما سأقوله لـك لا يهمني الا بصورة ثانوية . ولكن نظراً لتقديري لك وللعمل الذي أديته هنا بالاشتراك مع الكولونيل غالان الذي هو صديق قديم لي ، اردت ان احذرك من أمر ... لا ! ليس الامر بهذه خطورة بل انـه من صالحك الخاص واظن انك تعرفه : انك ستعود الى حياتك المدنية .. ومن الاجدر لك في المرافعات او الحملات الصحفية ان لا تتحدث الا بعد تبصر عن مشاهداتك والا اسأت الى الرأي العام والى قرائك ..

والآن .. المشكلة هي اننا سنقول انك اقمت «سوقاً عمومية» ، كتب احد معاوني بشأنها تقريراً. ليس هذا عملاً مرغوباً فيه ... ولكني شخصياً لا اجد ضرراً من اقامة هذه السوق .. انه لأمر طبيعي تذكره الانظمة العسكرية ..

ثم تابع بشيء من السخرية :

انه عمل يتفق مع الخطة السلمية ! فاذا ازداد مثلاً عـدد الاسواق العمومية قلّ عـدد حوادث انتهاك حرمة النساء ... أليس كذلك ؟ ولكننا لن نعرض الامر بهـذا الشكل ... بل

نقول انك استغليت زمن اقامتك بالزي العسكري للمتاجرة بالرقيق الابيض ، وانك لم تصرف وقتك سدى نظراً للارباح التي جنيتها من هذه التجارة .

فأخذت انظر اليه بانتباه متزايد ، فلا شك ان في منطقتنا سوقاً عمومية يذكرها التنظيم العسكري وان السلطات التي تأذن بها تجني ضمن القانون ربحاً يضاف الى صندوق عائلات الجنود . اما اتهامي بتشجيع هذه التجارة « الشريفة » وجني الارباح « علاوة » على راتبي فهو امر لم يساورني قط ! اما غاية المقابلة فهي ايجاد علاقة لارغامي على الصمت عند عودتي الى فرنسا . لا شك ان السبب هو هذا . وتابع الكومندان :

— اردت فقط ان اعرض لك الامر ... فقد يقال لك فجأة ذات يوم انك تعاطيت هذه التجارة؟ هذا كل ما اريد قوله لك.. هذا كل شيء !

واخرج علبة الدخان من جيبه ليحشو غليونه بينما تأهبت للانصراف لكن الكومندان الآخر اوقفني بعد ان اخذ من جرار المكتب صحيفة الاكسبرس التي اديرها وقال :

— لحظة اذا اردت !.. اريد ان اغتنم فرصة مرورك هنا لأتباحث معك بكل صراحة .. لم استمع الى الحديث الذي دار بينكما ولم ادرِ غايته (انه يعرف غاية كل الحديث طبعاً) ولكني اريد ان احدثك حديثاً خاصاً .. الا ترى (وقدم لي صحيفة الإكسبرس وقد كتب ملاحظات في عدة اماكن فيها الى جانب الاعمدة) اني اقرأ

كل يوم صحيفتك التي تهمني رغم اني لا أشاركها مواقفها السياسية ... أريد ان اسألك بصفة شرعيـــة ودون اعتبار لمركزي العسكري وللمكان الذي نحن فيه : ماذا تنوي كتابته بشأن الحركة السلمية في صحيفتك عند عودتك الى فرنسا ؟

اننا الآن في صلب الموضوع الذي تطلب كل هذه التمثيلية قبل ان يطرح السؤال علي بصراحة لعله يثير في الخشية فأرتدع. فكيف ينحط اشخاص يتمتعون بالمراكز السامية الى هذا الدرك من الخبث وهم يجهلون انه سوف يتحول ضدهم ؟ لقد فقدوا البصيرة من شدة احتقارهم للثوار ومن ثم للبشر اجمعين فأصبحوا يرفسون الناس بأقدامهم كأنهم فصيلة من الحيوانات ويسألونهم ان كانوا كاثوليكيين ام لا . ان احتقار الانسان يغير طبيعة الانسان .

لقد دونت مساء ذلك اليوم هذا الحادث الطريف في دفتري الخاص لأنه يعبر عن تسلل السم الى دم الفرنسيين الذي يؤدي الى حيوانية هذه الحرب والى مذلة الفشل .

كتبت هذا الحادث على دفتري الخاص وأنا استمع بالرغم مني الى الحديث الذي يدور بعنف بين جوليان وهنري . ان هنري جوليان رجلان شريفان لكنهما يتبادلان الكراهية . فيرى م وهنري في جوليان فساد التفكير عندما يظل هذا صامداً امـا إلحاحه . في هذه الامسية كان الحديث يدور حول جوف اذ قال جوليان :

– اذا لم تعزل جوف في الحال مـــن وظيفتــه فإني سأنصرف انا من هنا. ان جوف لا يعيب نفسه فقط بل هو يزري بنا

ايضاً ويشركنا في جرائمه ونهبه !..

ـ اذن فانصرف ! لقد نفد صبري من اوجاع ضميرك . فما عليك إلا ان تمكث في منزلك . لسنا بحاجة الى اشخاص يتعاطون السياسة في الجيش ..

ان هنري يخلط غالباً الاخلاق بالسياسة وربما كان على حق فتابع :

ـ اذا كان لا يعجبك العمل فانصرف وارح ضميرك حيثما اردت. اما نحن فاننا باقون في الجزائر ...فاذا فصلت جميع الجنود الذين يؤلمون ضمير جوليان لما بقي جندي في هذه البلاد ! لا بأس بقصصك الطريفة ولكن افهم في النهاية ان الجيش هو جيش وليس زياح اطفال ذاهبين للمناولة الاولى ...لم اقل انا هذا بل ليوتي .. واذا رأيت اني اعيب نفسي ايضاً فقدم شكوى الى الجنرال وانصرف عنا !

اما زالت هذه المشاجرات تسري بين الجنود ؟ جميعهم حانقون لبقائهم في هذه الديار رغم استمرارهم في العمل دون متعة.

وتابع هنري :

ـ لقد ارسلت هذا الاسبوع مراقبين الى المحكمة العسكرية . ألستَ راضياً بذلك ؟

لا شك ان هنري يعمل ما بوسعه مع علمه ان ارسال كابتن او مراقب الى المحكمة العسكرية لا يغير كثيراً مجرى الامور بل يزيد الخبث بين الجنود وتخفّيهم فيفقدون تماماً معنى الصراحة .

يعرف هنري تماماً هذا الوضع وهو لا يجادل الا لتمضية

الوقت او لتصفية حقده على جوف. لقد قال لي يوماً ما لا انساه :

ـ لقد قرأت « رسائل ستالينغراد » ولاحظت ان هناك المان لا يحبذون الهتلرية وهناك فرنسيين يحبذونها ممـــا يطرح علينا اسئلة حرجة ... اليس كذلك ؟

دون شك ، اذ ليس الانسان سيئاً بطبيعته بل هناك ظروف تثير حيوانيته وظروف اخرى هي امل له لوثبة الفكر. فمن يسهل لاخيه الانسان الظروف الاولى كان مسؤولاً عن نتائجها ووجب الاقتصاص منـــه قبل الاقتصاص من ضحاياه التي حرضها على المكروه .

لقد قارنت الدعاوة الشيوعيـة تصرف الفرنسيين في الجزائر بتصرف جنود هتلر ، لا شك ان هذه المقارنة خاطئة من اساسها ولكن هناك حقيقة وهي انك عندما ترى الرجال ألعوبـــة في الدوامة التي يوجدون فيها لا يحق لك اتهام وحشية جنود هتلر.

●

لم يتطرق احد للموضوع بدقة الا غالان عندماً تلقى ارشاداً من القيادة بشأن استعمال خطة معينة ضد الفوضوية والثورة ، فاكتشف أن الاخطاء لم تصبح فقط القاعدة ، بل هي القاعدة « الرسمية » فثار غيظه ، واعاد نص الارشاد ملحقاً بهذه الكلمة :
« ان الأساليب التي تستعملها عادة الحكومات المطلقة للاكراه وللحصول على الاعترافات والفعالية العاجلة يجب ان ننبذها تماماً وان نستنكرها استنكاراً مطلقاً » .

فدعته السلطات العليا وحذرته من اتخاذ هذا الموقف الذي يعرقل الأمور ولا يفيد الا علم الأخلاق !

●

خيّم السكون على غرفتي وعلى الغرف المجاورة بعد عودة الجنود من احدى الحملات لينعموا بقسط من الراحة . وأخذ المطر يتساقط في الخارج على الجبال وعلى سهل الجزائر في هذه الليلة الشبيهة بغيرها من الليالي التي سوف تخيم على هذه الحرب التي تشنها فرنسا على نفسها ! ففكرت في اسباب اقتناعنا بأن المأساة الجزائرية تغمر فرنسا وتهدد مستقبلها .. فماذا يبرر هذا اليقين ؟ كثيراً ما تطرقنا للموضوع دون ان ندخل الى صلبه خشية ان نتعرض للسياسة الخارجية ونخرج عن نطاقنا العسكري ، ولكن هذه المأساة انسانية ولها صداها في شتى النواحي الاجتماعية ، يقف فيها شعب بكامله ضد الدولة الفرنسية ويهددها بالزوال ؛ فاذا كانت المأساة فرنسية فمعنى ذلك ان الكيان الفرنسي متزعزع من الصميم اي في ناحيته السياسية والا لصمد امام التجارب كالامريكيين الذين لم يكتفوا بتحرير العبيد بل وطدوا كيانهم بالسعي لانتصار الديموقراطية .

ان موضوع البحث اساس الحكم عندنا ومضمونه السياسي وليصبح هذا الحكم متيناً وجب معونة الشعب حليف الحكم الوحيد ...

وبعد ان انتهى جوليان من جداله مع هنري اقتحم غرفتي وتمدد على السرير متأهباً لمعالجة المواضيع الهامة . فبادلته

آرائي فقال :

– ان المعضلة معقدة يا صاح ... والموضوع هو في ابقـــاء الجزائريين تحت نير الاستعمار ام لا ... وهذه الحرب وهـذه السياسة في الجزائر لا تؤديان إلا الى الفشل رغم تدخل الرأي العام بواسطة الثورة لتحويل مجرى الامور . سيتم مستقبل الجزائر بمعزل عنا ومن ثم تعيش فرنسا ...

انه قول صائب وفي غاية الصواب ... فالمستقبل لم يكتب فهي حية ما تزال ..

سعادة الانسان

واستمر القتال ...

لقد طلب هنري العودة الى فرنسا لكن طلبه هذا رفض. في نهاية المعركة تقدم رجل من احد الثوار المقتولين وبصق في وجهه ونزع عن ثيابه الشرائط الحريرية الحمراء وهو حانق لموت احد اصحابه . فشكاه جنديان الى الكومندان هنري الذي اعاد للثائر القتيل اوسمته وارغم جميع الجنود على تقديم التحيـــة للفرنسي والثائر العربي سوية .

***

عند عودتنا في المساء تملكتنا رغبة ماسة في الاستلقـاء على الارض للنوم . لكن الكومندان هنري دعانا الى مكتبه الذي هو اشبه بصالون فخم تجلس فيـه لأول مرة نساء حسناوات . فشرع اسبانيول يغازل احداهن دون حمية كأنه يؤدي فرضـا

رتيباً .

وجمع الصالون ايضاً عدداً من الاشخاص القادمين من فرنسا . فقال الكولونيل بيو :

ـ اطلب منكم ان تشكروا باسمي وباسم الجنود الفرقة المسرحية التي جاءت تسري عن الجنود ... وبعـــد عودة مدعوينا الى فرنسا نرجوهم ان يكونوا سفراءنا امام السلطات ويشرحون لها اعمالنا الخيرة .

فملك اسبانيول صبره لكنه انفجر ونحن على المائدة قائلاً :

ـ ايها الكولونيل ... لا اعلم لماذا تريد من المدعوين ان يمدحونا في فرنسا . فـاذا ارادوا ان يقدموا لنا خدمة عليهم ان يقولوا الحقيقة كما يرونها وهي اننا سنكون في وضع مؤسف اذا ما ثار الجيش على السلطة فاذا . قالوا هذا قدموا لنا خدمة جلى .

فاستغرب بيو هذا القول وقال لاسبانيول : ان الجيش في الجزائر منتظم وراض عن الوضع واذا دبت فيه الفوضى فبسبب تدخل السلطات الاجنبية ودعاوات الصحف . فرد عليـــه اسبانيول مناقضاً ودام الجـــدال رغم ادراك الاثنين الحقيقة الراهنـــة وشعورهما بالعجز .

وفي المساء حضر جميع الجنـــود الى المسرح فقدمت لنا الفرقة القادمـــة من فرنسا مشاهد عديدة قوبلت بالصفيـق .

ثم خرجت مع مرشدة اجتماعية في نزهة فقدرت عملها الشاق وأسرت إلي بالمصاعب التي تتعرض لهـــا . وتابعنـــا سيرنا رغم انتهاء فترة الاستراحة في المسرح .

ان ما تصفه لي هذه الآنسة هو الحقيقة بعينها .. هو ملل الرسائل وقلق الوحدة وفراغ الرؤوس والقلوب والالحاح في طلب المال وغياب الاهل والأصحاب .. بينما في الطرف الآخر حب العيش وهناؤه . ثم ارتأت الآنسة ان نعود الى المسرح فعدنا .

وهناك التقيت بجوليان صامتاً فسألته عما يفعل فأجاب بعد برهة من الصمت دون ان يحول بصره :

- اني انظر اليهم ..

جميع الحضور ينظرون الى ممثل يقلد موريس شيفالييه ويقهقهون معبرين عن شعورهم بالسعادة ، بينهم موري والارنب وغامبر وبودار ،وكانوا بمعزل عن مصاعب القتال والقلق الوجداني وبينهم ايضاً جنود قادمون حديثاً من فرنسا .

سوف يكتشفون الوطن الذليل والحيوان في اعماقهم بعد هذا الضحك المتواصل الذي يدوي صداه حولنا ... اننا نستعيد ذكرى حبنا للحياة وشعلة الامل بينما تجابه هذه الشبيبة الحاضرة الآن هنا عجزها ومخاوفها لتطمح بعدئذ نحو مستقبل جديد حر .

وقال جوليان لنفسه :

- قد لا يكون الثوار أناساً ، لكننا نحن جميعاً ثوار ...

مُلحَق

رسائل من رفاقي في القتال

لقد طالع رفاقي في القتال هذا الكتاب وارسلوا لي رسائل نقد او مدح اعرضها للقراء في هذا الملحق مذيلة بامضاء اسمهم المستعار نظراً لوضعهم السياسي الذي لا يتيح لهم التعبير عن رأيهم علانية . فأشكرهم لشهادتهم التي تثبت دون استثناء ان وراء الآراء المختلفة والمصالح الفردية حقيقة الوقائع التي عرفناها وعشنا فيها معاً .

ج . س . ش

رسالة الكولونيل « غالان »

عزيزي سرفن شريبر

اردت ان استعيد وأنا اقرأ مخطوطك ذكرى احاديثنا حول مستقبل افضل في الجزائر وذكرى حماسة اسبانيول وواقعية جوليان وايماني بوجوب كسب ثقة الشعب وتحريره من الخوف ومساعدته على قهر البؤس والشقاء، حين أعادت خطة الكومندو الحمية الى الجنود وكشفت لهم عن حقيقة انفسهم .

كان علينا ان نناضل مهما كلفنا الامر لأجل توطيد الحقيقة

ومنع التدني الذي يشكو منه مرقس . وتوجب علينا ان نعامل جميع الجزائريين لا كمجرمين بالقوة بل كأشخاص مثلنا .

فلا يسعنا اليوم ونحن نحترم القيم الفكرية للثورة الجزائرية الا ان نأمل للجزائريين مستقبلاً زاهراً متمشياً مع الحضارة وبالاشتراك مع دولة فرنسية مجددة . ولكن هل يوجد في بلادنا رجال يعيدون لنا ايماننا بالقيم ؟ فكيف يفقد الشباب بصيرتهم حيال مستقبل فرنسا الذي يرتسم في الجزائر ! ان املنا هذا هو حظنا الوحيد .... اني اتركك يا عزيزي سرفن شريبر تلعب دورك الصحافي اما انا فأتمتع بعطلتي العسكرية . ولكني ما زلت مرتاباً من القضايا الهامة التي تتطلب منا حلاً عاجلاً .

ايار ١٩٥٧

الكولونيل « غالان »

رفيق التحرر

رسالة الكولونيل بربورو

عزيزي سرفن شريبر

لا استطيع بصفتي رئيساً لك طيلة خدمتك في الجزائر ان اغض النظر عن النقد الموجه الي شخصياً في كتابك . فلن احكم عليك بصفة سياسية رغم تعاطيك السياسة .

لقد دعيت الى الجيش بصفة ملازم فحسب كما اكد لي وزير الدفاع الوطني وسكرتيرية القوى المسلحة . وقد قمت بمهماتك العسكرية افضل قيام وان الشهادة التي حصلت

عليها اثر اعتزالك يوم ٣١ آب هي جواب نهائي على كل الاتهامات التي توجه الى شخصك .

لقد قلت للسلطات انه رغم تعمدك الالتباس في كتابك كي يتعسر معرفة الاشخاص الحقيقيين فلا يمنع ذلك ان يكون كتابك كاملا صادقاً . وهو اشد صدقـــاً من غيره لانه لا يسرد حوادث عارضة بل الحقيقة اليومية الراهنة .

ان ما يبرز في كتابك ان سياسة السلم التي قبل بها الشعب والبرلمان لم تطبق في الجزائر وان لا حاجة بأن تكون مشاهداً متبصراً لادراك هذه الحقيقة بل يكفي عدم التحيز والاعتراف بأن الوسائل المتبعة على الصعيد الاداري والعسكري منافية تماماً لمبدأ السلم وهذا الاعتراف لا يضعف معنويات الجيش بل بالأحرى يبعد عنه مسؤولية تقع على عاتق غيره . ان ما يضعف معنويات الجيش هو الفشل والكلام الفارغ المجرد من الدعائم الانسانية . وما يضعف معنويات الدولة هو اقتناعها بأن جميع المساعي قـد استنفذت ولم يبق علينا الا الاستسلام .

لا يمكن انكار حرية التعبير عن بعض الحقائق التي تعتبرهـا السياسة خطرة الا اذا صادق الشعب على هذه السياسة التي تنبثق عن غير الارتجال.

... وأخيراً لانك اول من تجرأ على الاعتراف بالحقيقة ولأن الجنرال (بولار رديير) قد استقال من منصبه بسبب تصرف لا يحبذه ، يتهموننا اليوم بأن اعترافنا للجنود بالاخطـــاء اضعف

من عزيمتهم . « فكلما تضخم الكذب كلما زادت آمالهم في الصدق » .

ايار ١٩٥٧

روجيه بربورو

رفيق التحرر

رسالة الكومندان هنري

عزيزي سرفن شريبر

انك لا تجهل ان صداقتي لك وتقديري لصفاتك الانسانية لا يمنعاني من عدم مشاركتك آرائك السياسية . فلن اتخذ موقفاً جازماً تجاه كتابك بل اعترف بقيمته الأكيدة ووصفه الحسن وتحليله الصحيح وان كان فيه شيء من المبالغة .

انني انتمي الى عهد ماضٍ متعصب للجيش لا يؤمن الا به . اما مفكرو اليوم فهم بالنسبة لهذا العهد رجال ساذجون رجعيون.

وكما ان فرنسوا مورياك لا يحكم على الله لأنه أحال سودوم الى رماد كذلك لا احكم على فرنسا لأنها قاتلت في الجزائر . فالحرب واقع مؤلم ولكن ضروري في بعض الاحيان لتجنب الاسوأ .

يقوم رجال السياسة عندنا بالدعاوات لأجل السلم ونزع السلاح فيكسبون الأصوات في الانتخابات وعندما تأتي نكبة مثل سنة ٣٩ ـ ٤٠ لا يفكر احد في اتهامهم ..

إن هذه الحروب الاستعمارية التي يعتبرها شعبنا غير وطنية

هي بالاحرى مظهر من مظاهر التآمر الأجنبي على البلاد التي يريدون زوالها . فلا تحل اذن هذه الحروب بالطرق السياسية بل بتوطيد الحرية في الدول التي نستعمرها دون فقدان علاقاتنا في جو من التفاهم والرغبة في العيش معاً . هذا هو بنظري صلب الموضوع. امـــا تحليل نفسية القواد وتأنيب ضميرهم فهذه امور استثنائية عارضة تلهي الناس عن الموضوع الصحيح.

اني اكن لشخصك كل الاحترام ولكن آسف انك لا تحبذ موقفي السياسي. فسوف ينير التاريخ موقفينا ونعترف بأخطائنا بكل تواضع .

ايار ١٩٥٧

الكومندان «هنري»

رسالة الملازم جوليان

صديقي :

يعجبني كتابك رغم ان القراء قد اتهموا الشخص الذي يمثله جوليان بالغدر والخيانة . يعجبني للاسباب التالية :

١ – لانك تسرد حوادث واقعية .

٢ – لان هذه الحوادث يجب ان تنشر .

٣ – وربما لأني اشاطرك رأيك .

٤ – وخـاصة لانك تتصدى للموضوع بوضوح وتدافع عن الجيش المنصاع للكذب والحماس ...

ملحوظة : وجدت بين اوراق مرقس هذه الكلمات: « هل

يجب ان نستسلم لليأس ؟ كلا ان الشباب الفرنسي المدعو لحماية العلم هو أفضل شباب عرفه الوطن اذا رضي الجيش ان يتدارك اخطاءه ... لكن يجب الا تفوت الفرصة ... »

ايار ١٩٥٧

الكابتن « جوليان »

رسالة الكابتن انطوان

... لقد طلبت مني ابداء رأيي في كتابك « جندي في الجزائر » وسأطرح عليك سؤالين :

– هل الفرصة مواتية لنشر هذا الكتاب ؟

– هل تعطي قراءته فكرة صحيحة عن المعضلة الجزائرية ؟

اني اجيب بالنفي على السؤال الاول لأن بعض الصحف تستغل فرصة نشر هذا الكتاب لتعلن بأحرف ضخمة : « ضد سياسة العنف في الجزائر » . واجيب بالنفي ايضاً على السؤال الثاني لانك خلقت في كتابك جواً منافياً للحقيقة ولم تذكر الاحداث ذات الاهمية الكبرى فإنك مثلاً تترك شكاً بشأن مقتل العجوز برصاص جيرونيمو وتتحدث عن السيد ماروني بكثير من التحيز . ولم تذكر ايضاً الضيافة التي كان يتمتع بها الجنود الفرنسيون يومياً تقريباً في الجزائر عند السيد ث. والسيد م. ل والسيد م.ج الخ ...

... اني اجهل تفاصيل الحادث المتعلق بجوف ولكني اظن انك لم تذكر الا اخطاءه . امـا الكابتن جوليان فاني اقدر

استقامته وانسانيته لكنك لا تجهل انه لم يشترك في حرب الهند الصينية !

لم يتصرف الكومندو كما تقول في الكتاب . وهـــذا امر مؤسف . ولا تجهل ايضاً جواب احـد الكومندو لرئيسه الذي سأله عن انخراطه في هذه الفصائل : « انــــا نمل بصورة ... ففضلت الكومندو » .

وكان من الاجـــدر ان تذكر للقراء اني لست من انصار العنف ، بل ارسلت شخصين الى المحكمة العسكرية لهذا السبب مما يثبت ان العزم متفق مع قواعد الاخلاق .

... كان بوسعك نظراً للمركز الذي تحتـــله ان تمنع بعض الاخطاء وان تتدخل فعلياً في الحفاظ على النظام والحقيقة . فأقل ما يقال ان تصرف فرقتك قابل للجدال ! فبدلاً من ان يترك جنودك وظيفتهم ثابروا فيها ليقبضوا في آخر الشهر اجرتهم !

... واخيراً ارى انك لا تسرد في الكتاب الا التصرفات الفردية الناتجة عن عدم انضباط بعض الافراد للنظام العسكري ..

الملازم م . انطوان

فرقة الطائرات

رسالة الادجدان بستون

ايها الملازم ...

لقد قرأت بلذة كتابك « جندي في الجزائر » ... فالحوادث التي تصفها حقيقة ... واتمنى لفرق الكومندو النجاح ضمن هذه

الحقيقة الراهنة البعيدة عن العقائد الايديولوجية القائلة بوجوب ابقاء الجزائر في يد الفرنسيين بقاء مطلقاً ...

بستون

رسالة الجندي ب

... لقد تتبعت بشوق الحوادث التي تصفها في كتابك والتي عشناها معاً... اذ كنت سائق سيارتك الجيب ساعة دخل الجندي صالون الحلاقة ... انك اول من تجرأ على مصارحة الرأي العام بهذه الحقائق الاكيدة ...

اني ابعث لك هذه الرسالة بإسم جميع رفاقي .

ايار ١٩٥٧

ب . ب

– انتهى –

فهرس

١٧١ / ٤ / ١٩٦٠

جندي في الجزائر

بين العشرات والمئات ممن كتبوا عن الجزائر قد لا نرى مثل هذا الكاتب جديراً بالكتابة عنها.. فهو مدير صحيفة "الإكسبرس" الفرنسية، وقد خدم في الجيش الفرنسي في الجزائر مدة ستة شهور عاش خلالها في صميم المعركة وشاهد المآسي الدموية التي ترتكب هناك بلا عدد، فاستيقظ ضميره واشمأزت نفسه لما يقترفه المهيمنون على شؤون فرنسا من آثام في قضية الجزائر.. وعاد الى وطنه ليكتب بخبرته كجندي وكصحفي عما شاهده هناك.. بين زملائه الجنود.. وبين المستوطنين الفرنسيين.. وبين أخصامه ثوار الجزائر البواسل.. وليردّد بمرارة عبارة قالها أحد زملائه الجنود في ساعة يأس: "تبّاً لهذه المهنة! إن المرء ليخجل من التطوع لحرب كهذه ليس لها مغزى!"





منشورات المكتب التجاري - بيروت

الثمن ليرتان لبنانيتان